الكتاب العربي

سوق الكلاب

محيي الدين بن خليفة

مدونة أبو عبدو

أبو عبدو البغل

الكتاب العربي ★ سوق الكلاب ★ محيي الدين بن خليفة

محي الدين بن خليفة

سوق الكلاب



مطبعة المعارف . سوسة . تونس

الطبعة الاولى فيفرى 1976

مطبعة المعارف

سوسة - الجمهورية التونسية

— 1 —

تنفس ـ اسحاق ـ ملء صدره من ـ السبس ـ حتى اشتد بريق عينيه ورقصت الدنيا امامه ومال ينفض الرماد جانبا قبل ان تمتد يده بالة الكيف نحو صاحبه ـ الحاجة ـ الذي جلس ساكتا زائغا كانه راح يسبح وراء اشباح لا يراها غيره من الناس في عالم هذه السوق المستسلمة الخرساء .

وفتح ـ اسحاق ـ باب الحديث لا يطيب له ان تمضي السهرة دون ما يجيء بالنكت المليحة والنوادر الطريفة تهتك ستائر الليل الثقيل وتخفف وحشة الظلام العبوس من خلال ما توحي به تعتعة السكر وغيبوبة الحشيش .

... ما بال غزالتك شاردة الليلة ... كان قلتك تكسرت بالعسل ... او حشيش الليلة فيه غش ... انت تعرف يد صاحبنا الحشائشي .

وتنهد ـ الحاجة ـ كانه يخرج من عالم بعيد بعد ما تنفس ملء صدره من ـ السبسي ـ واشتد البريق في عينيه ورقصت الدنيا امامه وتراقصت مشاهدها الظاهرة وراء اشباحها الخفية واستوى الكلام نفخات يائسة وتباريح تائهة وخواطر عابثة .

... ارى سورا يا اسحاق ... سور ... ياله من سور جبار عملاق كانه شطر من السماء يقوم في وجه الشطر

الاخر ... سور ياله من سور كانه غمام فوق غمام يحجب قمرا لا كهذا الذي يضيء بين جوانبنا ...

وقهقهة ـ اسحاق ـ ملء شدقيه يسب صاحبه الذي كلما اخذ منه الحشيش ماخذه راح يحكي عن الاسوار والاشباح كانه راى في عمره غير اسوار سوسة ـ التي اضحت اكواما من التراب او اسوار ـ قصر لجم ـ الذي كثر حوله الاساطير وبناها الرومان لتمنع ـ الكاهنة ـ من قضاء ربها ولم يكن الا ان ادركها الطوفان تبول على الدنيا من اعلى شرفاتها كما علم اهل السوق من حيث لا يعلم احد .

واعجب ـ اسحاق ـ ان يحلق ـ الحاجة ـ مختبلا فراح يثيره عابثا مستفزا وما لذة ـ الكيف ـ اذا لم يتخلله الحديث بالذ من لحم القدر في الفرن واحلى من التمر والحلوى الشامية .

وتداولت السباسي ـ يتنفس منها الصاحبان حتى يشتعل البريق في عينيهما وترقص الدنيا بينهما كانها تصعد فوق السماء او تهبط تحت الارض وامعن ـ الحاجة ـ في خيالاته يستشف مشاهده من عالم فوق دنيا الناس ورسب ـ اسحاق ـ يثيره مستفزا كانه يستشف خفايا الدنيا من هذه ـ الزطلة ـ

واستوى ـ الحاجة ـ تفيض خواطره غامضة مبعثرة وامعن ـ أسحاق ـ ضاحكا مستخفا لا يلبث ان يستوي متنفسا ملء صدره ويعود مستلقيا نافخا في غبار الظلام يشحن صاحبه : ... كنت تقول . كاني نسيت ماذا كنت تقول ...

واجاب ـ الحاجة ـ ضائعا :

... سور جبار عملاق يا اسحاق ... كانه شطر من السماء يقوم في وجه الشطر الاخر ... غمام يحجب قمرا لا كهذا الذي يضيء بين جوانبنا .

وعاد اسحاق مقهقها :

... كاني بك ـ مزطول ـ يا صاحبي ... تاخذ وتعطي الليبة . واسترسل ـ الحاجة ـ كانه في يقظته :

... سورا اراه ... لا يقف عند حد السماء او الارض ... وتهكم ـ اسحاق ـ متعمدا :

... انت تحلم .. لعب الحشيش في راسك ...

وثار الحاجة ـ محتقرا :

... السور اراه ... بالحرام اراه ... ياله من سور ـ لا تراه عينك ...

وامعن اسحاق في القهقهة :

... هات ... هات ـ السبسي ـ ودعني املا راسي ...

وامتدت يد ـ الحاجة ـ نحو صاحبه الذي راح يتنفس ملء صدره وينفث الدخان ملء شدقيه ومنخريه حتى يشتعل البريق في عينيه مخيفا وتدور الارض منقلبة وتتعفن الرائحة كريهة مخدرة .

واستوى ـ اسحاق ـ كانه لم يكن يسمع صاحبه او يراه سابحا في عالم الخيالات الغامضة وامتدت يده الى التمرة يخفف مرارة فمه القاسية وقطعة الحلوى الشامية يضاعف بها نكهة ـ التكروري التي سرت في مفاصلة ترده رجلا فوق الرجال كان سياق الحديث ادرك الساعة طويقه .

... كنت تقول ... سورا وهو غمام او شطر من الارض في شطر من السماء ... كلام لا افهمه يا الحاجة ... هات غيرها ... السوق ... الحشائشي ... المدامة ... سوسة ... هات ... بابا الاخضر ... لامين ... واشتد الحاجة لا يفارق مشاهده .

... السور يا اسحاق ... لاسواه ... اراه ... وقمرا لا كهذا الذي يضيء ...

وحاول اسحاق عابثا :

... نعم ... نعم ... سورك الجبار ... بين عينك وراسك ... هات اخبارها سماءك ما دامت الخيوط عندك ... هات ...

وتنفس ـ الحاجة مسرفا :

... دعني اسرح وراء حمامتي يا اسحاق ... حمامتي تطير فوق السور العالي ... انت بقيم .

ورد اسحاق مستفزا :

... هي تطير فوق سورك العالي وتحطفي برجها الخالي ... لا حديث عندك وقت ـ الكيف ـ الا عن الاسوار والاقمار ...

وقاطع ـ الحاجة ـ ينهي صاحبه .

... دعها تطير في فضاءها البعيد ...

وتلدد ـ اسحاق ـ يعكر على صاحبه المنتشي :

... حمامتك مجنونة ... او قل مزطولة ... اعرف انها تطير بدون جوانح ...

وثار ـ الحاجة ـ معاتبا :

... مادا تريد ... انت تشخر من هناك وانا من هنا ...
اسوى ورجالها حتى ساعة الحشيش والشراب ... لاسور
ولاغمام ... لاقمر ولا حمام ... وتمضي بنا الايام مثنى
وثلاث ورباعي ... واسابيع واشهر وسنين ... هي دادما ...
مد ... رد ... هات ... هاك ... مالي ومالك فيها من نصيب

واستصفر ـ اسحاق ـ راي صاحبه :

... ها انت تغني لا يسمعك احد ... مسكين صاحبي .
طارت الحمامة بعقله ... ثمة غير السوق ورجالها في الدنيا
يا غبي ... ثمة غير ـ مد ... ورد ... هات وهاك ...
يا حمار ...

وجاوب الحاجة متهكما :

... مد ... رد ... هات ... هاك ... تركتك حيث انت ...
فوق سطح ـ الفرناق ـ لا ترى سورا ولا غماما ... ترقد
مزطولا ويقوم مثمولا ... امك ـ المدامة وابوك الحشائشي
وربك بابا الاخضر ... يا بهيم ...

وقاطع ـ اسحاق ـ متحاملا :

... وانت ... عمرك ترى اسورا واقمارا ... وتنتظر مقرورا
لا ما هو وراءك ولا ما هو امامك ... هات السبسي .
ومد الحاجة الة الكيف ـ مترنحا :

... لست وحدي ... ولا انت معي ... بين الناس من ينتظر
عمرا كاملا ... هكذا ينتظر ... مثلي ومثلك ... لازيت ولا
زيتون ... لا قمح ولا شعير ... لا مد ولا رد ... لا هاته

ولا هاك هو ينتظر ··· فمه مفتوح للهواء والريح .
وهزا اسحــاق ـ
··· انت سكرت ··· بالتكروري ··· اضرب لك علــى وتــر وتجيب على اخر ··· هات ··· هات ··· السبسي حتى يرجع عقلك وتنسى سورك وغمامك ··· هات ···
واعتدل الحاجة :
··· والله كنت اراه ··· السور ··· كنت ارى سورا جبارا عملاقا كانه غمام فوق غمام يحجب قمرا لا كهذا الذي يضيء جوانبنا ···

وانفجر ـ اسحاق ـ مستخفا :
··· ذاك هو ··· هو ··· والله هو ··· سور ـ الحمــام ـ يابهيم ··· وراء ـ الفرناق ··· عندك حق ··· ذلك هو ··· والله هو ··· هو ···

ورد الحاج منفعــلا :
··· اعرف انك بهيم بالحوافر ··· لا تجتاز عينــك ســور ـ الحمام ـ حيث الفيران والعقارب ··· الا حناش والخنافس ياكل بعضها بعضا .

وامعن ـ اسحاق مقهقهــا :
··· يخرب عقلك ··· وهل وراء سورك الذي تراه او لا تراه غير ما هو وراء سور الحمام ···

وتنهد ـ الحاجة ـ يائسا :
··· هذا السور الذي يحطنا وراءه في فرناق الحمــام ··· ليلنا نار ودخان ونهارنا فراغ وضياع ··· صحونــا بــؤس وياس وغيبوبنا هذيان وخوف ···

واستلسلم ـ اسحاق ـ متهكمـا

... كانك تريد ان تخترق الاسوار الى السماء ... ربك قياد العفاريت .

وتحفز الحاجة كانه ينوي ان يقفز :

... نقتحمهـا الاســوار ... ننفـذ ... نــرى ... ونــرى وراءها ... نبدد ليل النار والدخان ... نقتل جوع الفــراغ والضياع ... نمزق الصمت والخوف ...

واغرق اسحاق متضاحكا :

... ها انت تبكي لا يرحمك احد ... ما انــا وانت الا مــن الاشقياء وراء سوري الذي تــراه او وراء ســورك الــذي لا اراه ...

ونفخ الحاجة متنهدا :

... فتحت عيني في السوق ... يا اسحاق ... هذه السوق المستسلمة الخرساء ... انصب لا افرغ اكل لا اشبع ، انام لا اضجع ، أما يكفي شقاء وبؤس ... حقارة وياس ...

ودوح اسحاق محتقــرا :

... ها انت تتذمر كانك امراة ... هات اخبار سوقنا يــا ـ الحاجة ـ سوف يفضح الله نهاره وتاتي العربات مشحونة فيها قسمة ونصيب ... ننصب او نفرغ ... نربح او نخسر ... سواسية ... قم نلعب مع هؤلاء الذين ينهبون ويسلبون ... كانها العربات تشق الطريق من ـ سوسة ـ المتداعية ...

وتذمر الحاجة مضطربــا :

... لا قسمة ولا نصيب ... حتى مع هؤلاء الذين يسلبــون

وينهبون .

وقاطع - اسحاق - جازما :
... لا قسمة ولا نصيب ... كل ما هو لك ... ان تسكت ... تخرس فوق سطحك ... تهذي وراء سورك ... تطير بدون جوانح وراء حمامك ... مد - و - رد - وهات - و - هاك ... تركتك ترى سورا ولا سور امامك او وراءك ...

وثار الحاجة متحاملا :
... بالحرام والحلال ... كنت اراه ... السور الجبار العملاق ... سور كانه شطر من السماء يحطنا تحت كلكله ...

ونفخ اسحاق متضايقا :
... هات - السبسي ... هات ... ليس هذا شاني انا ولا شانك انت ... ما انا الا كلب انت اخوه في سوق الكلاب .

وسال الحاجة ساخرا :
... ومن صاحب هذا الشان غيري وغيرك ...
وجاوب اسحاق متملصا :
... ما اكثر دويك ... كان قدرك يغلي لا تكف تحته النار ...

ومد الحاجة - الة الكيف - مشحونة يتنفس منها اسحاق ملء صدره حتى اذا اشتعل بريق عينيه ، وتراقصت الدنيا امامه ، اعتدل جالسا واسترسل يسال صاحبه كانه ينتظر ان يطول الحديث اكثر من ليلة ليبدد غشاوة من الجهل ابدا هي تجمده ، ويطارد كابوسا من الخوف ابدا هو يكبله .

وتبخرت الرائحة الكريهة المخدرة تغالب روائح الفرناق الثقيلة وقطع اسحاق الصمت متلددا :

... كنت تقول ... نسيت ... والله نسيت ... ماذا كنت تقول ... قاطع ـ الحاجة عابثا :

... السور الجبار ... نسيته ... ياسي الكلب ...

وغمغم ـ اسحاق ـ كانه تذكر :

... نعم ... نعم ... تذكرت ... سورك الغمام ... غليانك في عالم الاوهام ...

وجد الحاجة حالمـا :

اه يا اسحاق ... لو اخترقناها الاسوار ... بددنا غمائمها .

واستخف اسحاق ـ

... يخرب عقلك يا حمار ... تخترقها ... انت مزطول

وامعن الحاجة مستعذبـا :

... نخرج من هذا الفرناق ـ من هذا الليل الطويل بين النـار والدخـان ... من هذا النهـار الثقيل بيـن الجـوع والفراغ ...

واستسلم اسحاق يائسـا :

... يا سيدي ... نفذنا ... اخترقنا ... بددنا ... دائمـا سور وراءه سور ... ناس وراءهم ناس ... دائما وابـدا ناس وراء سور ... نصيبي ونصيبك ... شقاء وبؤس ... حقارة وياس ...

وترنح الحاجة كانه سكران

... هو انت تقول ...
وجاوب اسحاق .
... ما كنت تقول ... وما يقال ...

واستخف الحاجة
... ذاك ما تركك وراء السور تنظر منتظرا ... فمك مفتوح للهواء والريح ... ويدك ممدودة في كل طريق ...

ورد اسحاق معايـرا :
... حـانك لست معي ... انت وامة العـرب ... افواهكـم مفتوحة وايديكم ممدودة .

وتمتم الحاجة
... سوف لا انظر ... لو رميت بنفسي من اعلى السطح ...
وتهجم اسحاق لا يريد ان يكف عن صاحبه :
... هات السباسي ـ يا الحـاجة ـ هات ... كسـر اللـه راسك ... حقا هو حكيم من سماك ـ الحاجة ـ

وقاطع الحاجة
... واحكم منه من سماك اسحاقا ... اسم يهود
واعجب اسحاق ان يباهي باسمه
... وثمة في الدنيا اغنى من اليهود

وجاوب الحاجة ساخرا :
... لا اغنى ولا ادهى من رهطهم ... لو كتب الله ان ينتصر هتلر لحشرك في زمرتهم ...

وعادت السباسي تمدها يد وتردها الاخرى ، تتخللهـا القهقهة المدوية والحديث المختبل ، يتراقص بالصاحبين مرة في عالم الاشباح والخيالات ويرسب مرة في عالم السـوق والحشيش ويعود بهما الى الة الكيف ـ والتمر والحلوى قبل ان يحلق وراء الاسوار والاقمار .

ومكث ـ اسحاق ـ عابثا ينفخ في اوداج صاحبه الذي لا تمسه كلمة حتى ينهال مثرثرا سخيفا يلعب الافيـون فـي راسه وتتراقص الخيالات امام عينيه في هذه الليلة التي جمع المكتوب بينهما اثنين لا ثالث لهما .

وترنح اسحاق متثاقلا :

... كنت تقول ... اه نعم تذكرت ... تذكـرت ... كنـت تقول ... تقذف بنفسك من اعلى السطح انت حقا ولد قح ... صرف ... تموت شهيدا ... والسطح شفيعك ...

وراوغ الحاجة ـ مستخفا :

... وانت شفيعك الحشيش انت وصاحبك الحشائشي يـوم تسقط في تنور الفرناق .

وتلعثم ـ اسحاق ـ عابثا كانه سكران :

... انت تنوي ان تموت شهيدا شفيعك السطح ...

ورد الحاجة حانق :

... انوي ان اهرب ... منك ومن رهطك ... كرهت وجهك ورائحتك ... اهرب ... الى الماء والهواء ...

وفتح اسحاق ـ فاه كانه لا يفهم :
... الماء والهواء ... يا سبحان الله ... يا سبحانه ...
الماء والهواء ... ماء بئرنا تسقي السوق باهلها وظهر السطح يغمر بالهواء من كل فج ...

وتقزز الحاجة مستنكفا :
... ماء مر وهواء عفن ...

وجد اسحاق ـ مثيرا :
... انت تكره المر وتهرب من العفن ... سبحان من علمك ومتى كان شانك غير شان الناس في رحاب السوق ...

وجاوب الحاجة جازما :
... منذ ان ركبت ظهر الفرناق ـ ياكلني البق والقمل ..

وجد اسحاق ساخرا :
... ومتى كنت تحس اذى البق والقمل

ونفخ ـ الحاجة ـ زافرا :
ساعة رايت في غيبوبة الافيون السور الجبار العملاق

ورد ـ اسحاق ـ النفس :
... سبحان من ردك تعرف الماء والهواء ... وترى في غيبوبتك ما لا تراه العين في صحوها ...

وجد ـ الحاجة ـ كانه لا اثر للحشيش في راسه :
... انت علمتني ... وفرناقك هذا الذي اخترته ...

وتهجم اسحاق عابثا مستخفا :
... هل اخترت ـ فرناقا ـ يشفع لي ولك سطحه لاقوم لك

خادما امينا بين ناره ودخانه وصيادا ثابتا يفتك باحناشه وعقاربه ...

ومال الحاجة ينفض رماد السبسي :
... حشيشك ... يا اسحاق ... افيونك ... داء فتاك ...
لا يدع لك ان تخترق خطوة نحو الفضاء دون ان تسقط خائفا مرتجفا ... داؤك الفتاك ...

وانتبه ـ اسحاق كانه يهب من غيبوبة :
... نخترق الاسوار ... نخترقها الاسوار ... الماء والهواء ... لا نار ولا دخان ... لابق ولا قمل ... لا فيران ولا ديدان ... لا عقارب ولا احناش ... يخرب عقلك يا مجنون ... ثمة ارض تخلو من هذه السموم ... هات ... هات ... السبسي افرغت راسي ...

ورد الحاجة يائسا معنفا :
... فك ... فك ... ترى وجه الكون ابيض ...
وتهكم اسحاق كانه يبدل صحو صاحبه :
... اوهو وجه قمرك الذى يضيء جوانب سورك الغمام ...
وجزم الحاجة :
... قل وجه الكون ... وجه الحياة ... وجه الوجود ...

واستخف اسحاق :
... قل وجه السوق ... سوقي انا وسوقك انت ... سوق العياء ... والعناء ... اذا مر مثنى الايام وثالوثها لا تعود العربات المشحونة من ـ سوسة ـ قل لاحياة لي ولك ولا وجود ينتظرني أو ينتظرك .

وقبل الحاجة يده ممتنا :
انا شبعان ... يكفي ارى وجه الكون ابيض ... وجه الوجود مشرقا ... اتغدى نهاري من الريق والحنك واتعشى ليلي من دشاهد السور المتراكم بالغمام .

وضرب اسحاق كفا بكف :
... جن صاحبي ... والله جن ... يتغدى نهاره ريقا من الحنك ويتعشى ليله خيالات من افيونه ...

وتمدد الحاجة متعبا :
... انت جننت ... جد عندك ما سمعتني اقول ... لاسور ولا غمام ... طارت الحمامة ... طارت ... النوم ... النوم ... نحن صاحبان لا يختلفان ولا يتفقان ...

وغمغم اسحاق يسب هذا الصاحب الخبيث :
... قتلك الله ما اقل رايك وافسد عقلك ... كانك تخاف من النهار ...

وافتضح الفجر واستيقظ النهار وابتلع الصمت سطح الفرناق الخراب تحت عرائش القش والحطب كما ابتلعت الزطلة ـ الصاحبين لا يفقهان ولا سبيل ان يذكر هذا او الاخر متى نام ولا متى قام ولا ما دار من الحديث تحلق به الحمامة فوق السور العالي وتحط به في البرج الخالي .



— 2 —

تصايحت الديكة ونادى المؤذن ودبت الحركة في طريق السوق وطالع ــ الحشائشي المقهى متوكلا يقاوم كحته التي تنبعث مسترسلة من صدره لا تفارقه بين لهيث وصحيح الا اذا قبع ازاء المجمرة والاباريق باسطا اللوحة النظيفة فوق المائدة القصيرة يعد كمية ــ التكروري ــ و ــ الصوفي ــ مرة يعابث كلبته ــ السوري ويلاغي عصافيره المختارة ومرات يهاجن جلسائه ولم يكن يجلس مهما اشتدت كحته قبل ان يقطع اشواط الصباح بين الحوانيت جائبا بالطبق والاباريق فوق كفه يردد اغنيته مترنما :

... صباح الخير قهوة ... نهارك زين ... قهوة ... نهارك مبروك ... قهوة ... نهارك سعيد ... قهوة ... قهوة ... يا مريم وعلاش دلالة ... قهوة ... يا مولات العين ذبالة ... قهوة ...

وطالع سي لامين ــ مقهى صاحبه مبتدرا ربه الواقف ازاء المجمرة والاباريق يعد طبق الكؤوس بالتحية التي يعرف انه لا يردها قبل ان يرفع عينيه ويقوس حاجبيه ليرى طالع يومه وتضاحك ــ الحشائشي ــ كانه يعتذر عن القهوة التي لا تزال في حكم النار واستوى سي لامين فوق كرسي الخشب الطويل ينتظر ركون صاحبه الى مائدته كما تعود ان يجالسه في كل

صباح ويجاذبه اطرافا من الحديث همسا وجهرا حتى يمضي الوقت الذي يلزم للقهوة فوق نار المجمرة ويتوافد الحرفاء على كرسي الخشب الطويل .

ووقف ـ سي لامين ـ ازاء صاحبه القريب يقطع الصمت سائلا :

... سمعت ؟ ...

وجاوب ـ الحشائشي ـ

... خيرا ... ان شاء الله ...

وتهجم ـ سي لامين ـ

... كان وجهك وجه خير ...

وتفصى ـ الحشائشي ـ

... وانت اهل كل خير ياسي لامين ...

واحتد ـ لامين ـ

... فك ... من الخير والخرم على وجهك ... سالتك ... : اجبني ... لا تراوغ ... تعرفني اسالك عن الخير ... يا شيطان ...

ونظر الحشائشي في عين صاحبه

... اش خير من الخير يا عبد الله ... دائما انت وراء الشقيقة والرقيقة ...

وسب سي لامين ساخصا :

يا شيطان ... تعرف الخير ... معي انا ... لعنت انت ومن في هذه السوق اذا كان فيكم من يفرز الخير من الشر

وتضاحك ـ الحشائشي :

... تقصد الامام الجديد ... مبـروك علـى المصليـن ... عرقوب خير ان شاء الله ...

واحتد لامين :

... خيوط راسك مست ... الزطلة ... تدوي في راسك ... تعرفني اصلي يا خبيث ...

وراوغ الحشائشي متضاحكا :

... يعفو الرب يا سي لامين ... بي وبـك وبامـة محمـد اجمعين ...

وتراجع سي لامين يائسـا :

... يعفو من السارق والخطاف ...

وجاوب ـ الحشائشي ـ هازئا :

... واولاد الحرام ...

وتقدم سي لامين ـ يمسك كتف صاحبه

... تخادعني ... اجب عن سؤالي ... سمعت ... البارحة

وتملص الحشائشي :

... ربي كريم ويجب الكريم ... سبحانه ما اعظم شانه ...

واستسلم سي لامين يائسا :

... ربك اقوى منك ... ياحلوف ... دائما تتماوت ... انا اعرف ... لا اقول لك ...

وتهكم الحشائشي :

... زاد الله في زادك ورفع شانك ... الدنيا عجائب ...

اليـوم ... تـاي ... سكـر ... قهـوة ... حلفـاء ...
صبارة ... الناس يدك وحديدك ... سوسة ... سوسة ...

وابتسم لامين :
... الجديد ... هات ... الجديد

والتفت - الحشائشي - نحو صاحبه
... ثمة غير سوسة ؟ .. فلوس ... فلوس ... ذهب

وقاطع سي لامين :
... معروفة عند الكبار والصغار ... اسالك عن البارحة ...
البارحة

وتجهم الحشائشي كان خبرا فاته
... سلب ... نهب ... سرقة ... خطفة ... لا قطع اللـه
لنا عادة ...

وتهجم لامين :
... تعرف يا حلوف ... وتخفي عني ... كانك تخاف مني ...
سوف ترى مصيرك اليوم ...

وانتبه الحشائشي موجسا :
... ما سمعت شيئا ... بالحرام ما سمعت ... الذهب ...
الفلوس ... الحلفاء ... الصبارة ... التاي ... السكر ...
القهوة ... التكروري ... سوق المارشنـوار - في الليـل
والنهار ...

وارتبك - سي لامين هامسا
... لم تسمع باسلاك قطعت ؟

وقهقهة الحشائشي مقاطعا :

... قطع الله عروقك ... اي اسلاك ...

واخرس سي لامين جالسا في مقعده فوق كرسي الخشب الطويل خائفا مرتبكا كان همسه مع ـ الحشائشي ـ مناورة خطيرة في هذا الصباح لا تخلو من شكوك وتجسس اذا ثبت ان اسلاك الهاتف تقطعت وارتجت الحلقات بالاخبار والتعاليق يردها بعض الى بعض عن الحرب وادوارها .

وارتفعت اصوات الفوالين والباعة المتجولين بين الشوارع والازقة متجاوبة تنادي الى الفول المطبوخ والفطائر ابدا هي تتردد في مسامع الصبية كل فجر ... ياربي الاعمال عليك ... يا الله ... فول سخون بالكمون ... ان شاء الله ...

وتتباعت حركة الحوانيت يقف اصحابها لموائدهم ، عارضين بضاعتهم في الاكياس والصناديق عاكفين على شؤونهم الكثيرة قبل أن تشتد الحركة وطارت اصوات الصبية من الكتاب بالايات البينات ، لا ينقطع الشيخ راجح ـ يدمدم فيهم بالعصا وانتظم مجلس العدول ازاء مكتبهم مستفتحين نهارهم بالقيل والقال . وتبختر وكيل الاحباس في طريق مكتبه يرعى في جوانب السوق متافقا والتئمت حلقة الخياط مع جلساءه يتجاذبون اطرافا من الحديث ووقف الحلاق فوق عتبته يحيل النظر منتظرا اصحابه .

وجهز ـ الحشائشي ـ طبقه بالكؤوس والاباريق وهو يهمس في اذن ـ سي لامين ـ كانه يخشى ان تطيش منه كلمة

في هذه الساعة التي لا يحسها اهل البلد منذ ان قطعت الحرب عادة حياتهم وبدلت اسباب عيشهم حتى باتوا لا يودعـون الليل قبل ان تتكدس اكوامهم بالحبال والظفائر والشرطان التي ويبيعونها كل نهار ليشتروا كميات الحلفاء ويقوموا اطراف الليل وفي النهار خدمتها مع ما انصرف اليه عتاة الرجال من سلب ونهب في سوسة القريبة التي اصبح يرتادها الناس من كل بلد وقرية كلما احتدم القذف لا يرجعون دون الظفر بأغانم من الذهب والنقود والامتعة قفافا واكياسا .

وارتبك سي لامين متضايقا من همس صاحبه وريقه المتطاير بين اسنانه المفللة وطاطا متكتما لا يريد أن يسمع او يجيب وانتابه الخوف كان يده القذرة لا تامن شر هذه الايام العاصفة التي تدمدم بانتصار ـ الحلفاء ـ بعد ان كاد ـ الالمان ـ يمحو اثرهم من الدنيا .

ورجع الحشائشي يبدل هواجسه متبسما :
... قهوة ؟ ... كاس ماء ...

وتدارك لامين منتبها :
... اصبح لله ... عمرك كاملا تبيع الماء قهوة ... الخشخاشة تكروري ... البعر تمرا ... لا تشبع ... دائما وانت تح بح ...
... حكم ربي ... الحمد لله ... ناكل القوت ونرتجي الموت ...

وتهجم سي لامين متعمدا :
... تحمد او تقعد ... الكذب كاب ...

وقاطع الحشائشي ساخرا :

... انا الكلب وانت الذئب ... رويدك ... تسمع النبيح ... كلاب ... كلاب تكر وتنبح بالنهار ... وكـلاب تنهش وتعض بالليل ...

وابتسم لامين ـ مستريحا

... هات قهوة ... وكاس ماء ... والصحيح

وابتسم الحشائشي :

... منك اسمع ... الصحيح عندك انت

وامتقع لامين يسبه :

... انت قلت ... ياخبيث ... ترمي الحبل في عنقـي ... انت قلت ... بالحرام انت ...

وتضاحك الحشائشي محاذرا :

... لا انت قلت ولا انا ... اطال الله فـي عمـر الحلفـاء والصبارة

وتضاحك لامين مطمئنا :

وسوق ـ المارشنوار ـ

وغمز الحشائشي مشيرا الى اسحاق المتثائب بين خطوة واخرى :

... وكلاب السوق ... تشري بالحاضر وتبيع بالمطلوق

وسال سي لامين متجاهلا :

... لا هو ولا الحاجة ... عندهما كنز ؟

– ووعبث الحشائشي متحككا :
كنز في الفرناق ... كنز اسحاق انا اعرفه وكنز الحاجة انت تعرفه ...

واحمر سي لامين لا يقبل هذه المداعية التي تقذفه حديث الافواه كانه وحده يعشق الغلمان وقهقهة الحشائشي – مسنطيا هذه الخلوة مع صاحبه قبل ان تهب كلاب السوق تكروا وتنبح ويعض بعضها بالليل وبالنهار .

واستوى – سي لامين – في مقعده يترشف القهوة متنحنحا شاخصا في وجه – اسحاق – الشاحب مستغربا انزواءه بنفسه فوق عتبة قريبة لا يكلم احدا وانصرف – الحشائشي – منهمكا يعد اباريق القهوة لزبائنه الذين لا يرومون غيره ما بقي هو صاحبهم الذي يستقى لهم الاخبار ويفشي فيهم الاسرار بالهمس والغمز ويتشمم رائحة الاسواق التي تروج فيها البضاعة المنقطعة .

واشتد النهار وتحركت السوق وطاف – الحشائشي – يقطع اشواطه بين الحوانيت مترنما ... صباح الخير ... قهوة ... نهارك زين ... قهوة ... الحاج ... قهوة ... بابا علي ... قهوة ... بابا صادق ... قهوة ... الشاوش ... قهوة ... الفرطاس ... الكلب الاعمى ... قهوة ... نهارك زين ... قهوة ... الاعور ... قهوة يانهار مبروك ... قهوة ... سوق الجرابة ... وسوق الحوت ... يانهار سعيد ويانهار مبروك ... قهوة ...

ورجع رب المقهى يترنم منبسطا كان حديث صاحبه – سي

لامين ــ وتحيات الحرفاء المتجددة ازاحت عن نفسه اثار ــ الزطلة ــ التي لم يكن يخلف موعدها مهما بلغت مشاغله وتراكمت شؤونه ولا يرجع عنها قبل ان يحس بها تلعب براسه وتراقص عيونه كانها الدنيا تستوي امامه كما شاء الحشيش ان يستوي فيها ظل القمر بحيرة راكدة او ستائر الظلام سورا جبارا وحتى الديك الناعس حمارا ناهقا لا سبيل ان ينبح كلب خائف دون ان يجيب المزطول مفزوعا منكمشا ... الحرب ... الحرب ... الالمان ... ربح ... ربح ... رجع ... رجع ...

وقف رب المقهى ازاء المجمرة لا ينقطع يترنم :

نهارك زين ... قهوة ... نهارك سعيد ... قهوة ... عم الحاج ... قهوة ... والكلب الاعمى ؟ ... قهوة ... بول عليه ربي يحرق اويعتق ... انا وراءه وربي يراه ... احرقه قبل ان يحرقني ... ما دام قطاطس ... البوليس ... انا وراءه ... معنا نحن ... أولاد سوق ... اب عن جد ... جد ابيه الكلب ... الكلب ابن الكلبه ... حاشا دين محمد ... الناس كلهم ... يحبون التكروري ... لست انا وحدي ... حتى سيدي الباي يحبه ... حشيشة ... تفتح الذهن وتزيد في العقل ... حفظنا الله من ــ النفة البيضاء ... افيون قاطع ... ياسميع ياعليم ... التكروري والقهوة ... فيه البركة ...

ووضع ــ الحشائشي ــ ابريق الدريبة فوق المجمرة قبل ان يبسط الطبق ليقطع شوطا اخر بين حانوت المشائخ ومكتب العدول حتى اذا فتح ــ بابا الاخضر ــ باب دريبته وجد رب

المقهى نفسه في مامن من صراخه وغضبه وتهديده بالسيد الكاهية الذي كان قلما يشرب القهوة لانصرافه وراء شؤونه الكثيرة ما دام حاجبه او احد مشائخه ينوبه حازما صارما متدبرا ثابتا لا يرمي غير الصيد السمين ولا يقدم غير الاكلة السائغة .

ومضى — الحشائشي — يغرق القهوة ويجدد التحية لا يتردد ان يرد كلمة الخير باطيب منها وكلمة السوء باقذع منها ما دام اهل السوق جميعا يحبون اثارته ومطارحته بالكلمات التي توحي بها زطلته — الخبيثة وقلما لا تكون مصيبة حيث يريد ان تصيب جارحة او مريحة ويغفرها له من كان يحس انها تقصده بعد ان استقر بينهم يعيش العمر — مزطولا — لا يفقه بالليل ما تركه في نفسه النهار غير انصرافه الدائم بالطبق فوق كفه هامسا مترنما او جلوسه ازاء مائدته القصيرة يعد كميته من — التكروري — والصوفي — او وقوفه لاقفاصه بالعصافير ينوع طعومها من التين والعنب والتمر والشريحة اكثر من حرصه على شؤون داره ونفقة عياله الذين لا يراهم اطراف النهار ولا يرونه اثاء الليل الا مخدرا تلعب — الزطلة — في راسه لا يفقههم ولا يفقهونه كانه لا يعرفهم ولا هم يعرفونه ابدا يندس في فراشه هاربا خائفا او انسا مستانسا ليعود فاترا مبكرا الى المجمرة والاباريق يغالب الفحيح واللهيث .

وطرق حزام الشمس جدار المقهى ودوى صوت بابا علي — في ارجاء السوق اذنا عن رجوعه من جوتله بين الشوارع يبيع الفول المطبوخ ابدا هو يغني كل صباح مرددا :

... ياربي الاعمال عليك ... يا الله ... فول سخون بالكمون ... ان شاء الله ...

يجاوبه - الرادسي - من الشوارع البعيدة :

الاعمال على الله ... مدمس ها الفول ...

ويجاوب - بوصنانة - الاصوات كلها :

... سخون ها الفول ... بالكمون ... يا لله ...

ويلتقي جميعهم وسط السوق ينفضون بقايا بضاعتهم الرائجة تاركين النهار لاصوات كثيرة تنادي الصغار الى عرائس الحلوى وربات البيوت لشراء الاباري والمساسك واللوبان او باعة البيض والدجاج يتسابقون بين الشوارع والازقة ابدا تتجاوب اصواتهم :

... ياعظام ... يادجاج ... للبيع ... ياعظام ... يادجاج ... للبيع

واشتدت حركة النّهار واتسعت الحلقة حول مائدة - سي لامين - الذي انفرد باخبار البيع والشراء وتجارة الشاي والسكر ولعبت يده في كل سوق وجرى اسمه على كل لسان واصبح من خيرة الاخبار في سوق - المرشنوار - وابر الابرار في بيع الاسرار يعرفه اهل السوق جميعا كما يعرف نفسه بينهم لا يضايقه ان تصيبه كلمة جارحة او تلحقه عاقبة مرة ما دام هو منهم وهم منه في حياتهم سواسية يسوقهم عسكر - الالمان - والطلمان او جيوش الانجليز والامريكان او لفيف الفرنسيس من البيض والسود .

واحتدمت حركة الدريبة بالداخلين والخارجين وانكمش ـ الحشائشي ـ منقبضا كان صوت ـ بابا الاخضر الصارخ الصاخب لم ياذن له في طبق الدريبة ـ هذا الصباح لامر خطير يفوت حوادث وسطو ـ القطعية ـ على دور الناس ما دامت قلاقل الحرب تهز الدريبة وتحطها في كل يوم وقاطع صوت المعلم ـ دبة ـ مدمدما ينـادي الناس ان يفتحـوا مسامعهـم الى بعضهم واخرست الاصوات موجسة وعاد المعلم ـ دبة ـ مبرحا .

... يا موالي البلد ... يا عرب ... يا مسلمين .
وهب اهل السوق جميعا واقفين منصتين يكـاد بعضهـم ان يتساقط فوق بعض وسد المعلم ـ دبة ـ اذنيه بكفيه بعـد ان اصابت حنجرته راحتها وعاد ينادي مدمدما :
... يا عرب ... يا مسلمين ... اليوم ... بعد صلاة الظهر في بطحاء السوق ... ترون عاقبة الخونة ... اخرجوا كلكم الى بطحاء السوق ...

وامتلات العيون بالنظرات الخرسـاء وعجت النفـوس بالخواطر الكئيبة وتفرق الناس يكاد صوت ـ المعلم دبـة ـ ان يرديهم اكوام حطب ميت لا يبادر احدهم هامسـا حتـى يتهاه الاخر خائفا مرتبكا ما دام لا شان لاحد في هذه الامور وليست هذه اول مرة يقتلون ... ومن يردهم لا يقتلون ؟ .. شاءت الايام ان تنقلب الكفة ... ويسقط الالمان ...

وخرجت ـ ما دام قطاطس ـ تختال تيها كانها تتحدى قوم العرب المتفطرسين ، يملا ظهرهـا زوجهـا العسكـري

المتقاعد ، يستقى صوت المعلم ـ دبة ـ منشرحا متعاليا .

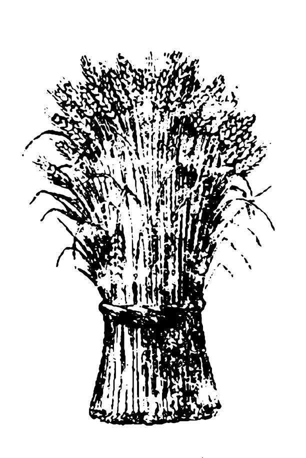
وراح الخبر يشحن النفوس ويملا الخواطـر ، لا مـن يسمعه دون ان يلعن المعلم ـ دبة ـ الذي بات صوته نحسـا على اهل البلد وتذمر الناس لا يصدقون ان يضرب الرصاص على قارعة الطريق ابناء ابرياء وسط سوتهم دون ان يقع ما يقع كلما تحركت نعرة العروبية واشتدت شوكتها .

وطاف ـ الحشائشي ـ بالطبق هامسا مستنكرا ونهاه ـ سي لامين ـ أن يخوض في هذا الحديث ليضربه الرصاص مع المتهميـن الذين قطعـوا أسلاك المخبـابرات حيـن كـان ـ مرنقمري ـ يخاطب جيوش الواجهات وتحامل رب المقهى بسبب هذا القهر ما دام هؤلاء الابرياء قد دفعهم العطش في ارض انقطع منها اثر الحبال والشرطان ليملؤوا مـاء مـن البئر باسلاك مطروحة في كل طريق .

واعترض ـ سي لامين ـ يعاتب صاحبه مستصغرا رايه اذا كان حقا يعتقد ان تخسر الدول العظمى الحرب ليشـرب ابناء العرب الاجلاف ورد الحشائشي بالسب والشتائم داعيا صاحبه ان يكف عن الحديث في هذه الساعة التـي تسـرب الشرطيون يتجسسون ويتلصصون .

سقطت السـوق خرساء كئيبـة ترعى خلالهـا عيـون ـ المدامة ـ طولا وعرضا كانها عادت لها اليوم مماكة بعد ان كانت تدعي انها ـ المانية ـ بنت هتلر الجبار وخلت المقهى من الحرفاء لا يطمئن احد على نفسه في ساعات كهذه التي

خيمت بالموت تتهدد كلاب السوق ما داموا عرـبا كـاالقش لا تهدا عنهم الرياح الا اذا اكلتهم النار متطايريـن ولا يسلـم منهم حتى المعتصمين بحبل ـ الفرنسيس ولا يساؤون مـا تساويه ـ المدامة ـ اذا حق الحق .



3

عاد اسحاق يدعو صاحبه ان يواجه النهار ويتدبر طعام السهرة لينصرف هو في خدمة ـ الحشائشي ـ مقابل كمية ـ التكروري ـ وتلدد ـ الحاجة ـ مجيبا ان الليل لا يـزال حالكا مخيفا وتعنت ـ اسحاق ـ يناديه متثاءبا كانه يحـن الى حصة من النوم لا حاجة له ان يرى نهـارا فـي الحيـاة وانفجر ـ الحاجة ـ بالسب والشتائم والح ـ اسحاق مناديا واخزا حتى استوى ـ الحاجة ـ في مضجعه مقهقها يدفـع صاحبه ان يقضي حاجته ماكدا ان شان اللحم والقدر عنده . وجاوب ـ اسحاق ـ بالسب والشتائم كان ـ الزطلة ـ التي تنفذ به الى عالم الاسرار والاقمار في الليل لا تفوت ان تدكه في قاع السطح طول النهار وتثاءب ـ الحاجة ـ متكاسـلا متمططا يستعذب تحامل صاحبه الغبي ويفرك عينين ثقيلتين ولم يلبث ان انفجر ضاحكا مقهقها :

... شان اللحم والقدر عندي ... قفة تكفـي اليـوم وغده ... وتساءل اسحاق عابثا :

... سيادتك جزار ... او صاحب غنم ...

وقهقه ـ الحاجة ـ مستخفا :

... قلت لك قدر الليلة على حسابي ... ياحمار ... من لحم القطط ... واستكشف ـ اسحاق مشمئزا :

... لعنت ... لو قلت كلبا ... سمعتك ... لحم القط
لم اذقه في عمري واسخف ـ الحاجة ـ مقهقها :
... انت تحتال على ـ الحشائشي ـ وانا ... على
ـ المدامة ـ ...

وذعر ـ اسحاق ـ موجسا :
حذار منها ومن قططها ... يا ولد القح ... السجن امامك
وانا وراءك ... وعبث ـ الحاجة ـ محتقرا :
... قطة سمينة ...

واستغوذ ـ اسحاق ـ
... اخاف من العاقبة ... بار البلاء يباريك ... ياسي
الكلب ... وتندر ـ الحاجة ـ مستعذبا :
... تعرفني واحدا منها ... انت تعرف انها تحبني ...

وتبرا ـ اسحاق ـ من كل اثم :
... لا شان لي في هذا الدور ...
وقهقه الحاجة عابثا :
... تعرف كم ركبت صدرها ...
وتقهقر ـ اسحاق ـ متنهيا :
... اسكت ... لو سمعك زوجها ...

وامعن ـ الحاجة ـ مسرفا :
ظنه زوجها ... يا محنون ...
وثار ـ اسحاق ـ متملصا :
... من اين لي ان اعرف مذهب ابيه الكلب ... قم ... تدبر
اللحم وكفى . قطة المدامة او كلبة الحشائشي ... انا لا رايت

ولا سمعت ...

واغرق ـ الحاجة ـ مقهقها :

... اليوم قطة ـ المدامة ـ على حسابي انا ... وكلبة الحشائشي على حسابك انت ... وتدحرج ـ اسحاق ـ من السطح تسد مسامعه مطارق الحدادين وتعشي بصره اضواء النهار القوية كان كهفه مع صاحبه لا يرى غير غبار النار والدخان ولا ترومه غير القمال والبراغيث ولا تصحو فيه الدنيا دون ماهي ـ السباسي ـ المشحونة والخواطر المعتوهة .

وتمشى ـ اسحاق ـ بين الحوانيت المضطربة في نشاطها كان الطائرات المغيرة على ـ سوسة ـ داهمت في ساعة مفاجئة . وامعن في جوانب السوق لا يرى غير المعلم ـ دبة ـ قابعا يملا فم ـ الريبة ـ او بابا الاخضر ـ واقفا يراقب حركة ـ الحشائشي ـ المنكمش كانه ديك راقد يواجه دار ـ المدامة ـ التي وقفت فاجرة متكبرة .

وارتعدت فرائص ـ اسحاق ـ في خطواته امام ـ الدريبة ـ حتى كاد ان يسقط ازاء هذه المصيدة المنصوبة في قلب السوق وظهر له انها مفروشة بالالغام بعد ان انقطعت الحركة وخيم الصمت موحشا ثقيلا كان صوت المعلم ـ دبة ـ الكريه داهم الناس باكثر ما تداهمهم الطائرات .

... ودفع ـ اسحاق ـ الارتباك سائلا الحشائشي متقربا :

... يانهار ... يانهار ... عمي الذئب في الدار

وجاوب رب المقهى ناهيا :

... اجلس واسكت ... عمك الصيد في الغار ...

وتجاهل ـ اسحاق ـ متعمدا :

... قم وتكلم ... كانك كيس من الدقيق ... او كلب يختبيء في التبن ... :

ونهاه الحشائشي :

... اخرس ... كل ساعة وعلمها ...

وتلدد ـ اسحاق ـ :

... انت ايضا ... لازلت ـ مزطولا ـ حمامتك تطير وتحط ...

وعض ـ الحشائشي ـ شفته مهددا بالكرسي :

... اسكت ... اسكت ... ما ابلدك ...

وابى ـ اسحاق ـ ان يقيله :

... ما جئتك طالبا او مستجديا ... بول عليك وعلى التكروري معك ... :

وضاق رب المقهى من صاحبه :

ما ابلدك ... حتى المشنقة فاتها الوقت ... الموت بالرصاص يا كلب ... واحق الناس به انت وصاحبك ...

واستخف ـ اسحاق ـ متعمدا

... حتى الكلام في الشارع ممنوع ... بالحرام انت كلب في يدك سبحة ...

وبصق ـ الحشائشي ـ متوعدا :

... كف عني ... يا بليد ... كانك لم تسمـع المعلـم ـ دبة ـ

وقاطع اسحاق مطمئنا :

... لا تعمل ... لا تخاف ... لا تمد يدك في الغيران ولا تلسعك عقارب وامتقع ـ الحشائشي ـ من وجه هذا الرجل الذي لا يريحه دون ان يظفر بالحشيشة الخبيثة لا يدفع فيها ـ فرنكا ـ ولم يلبث ان وقف يهمس اليه زاجرا ويقضي لـه حاجته خائفا متسترا وعبست المدامة ـ في وقفتها كانهـا لا تطيق ان يصلح ما بين الرجلين ولا تريد ان تراهما غير قط وكلب في نزاع دائم . وتراجع ـ اسحاق ـ مقهقها يدعو الى رب المقهى بالحكم في ـ الديربة ـ ليرد الكلام في الشارع ـ مارشنوار ـ وجاوب الحشائشي ـ باصقا سابا هذا الرهط الذي لا يكف ولا يعف ساعة جد عاد ـ اسحاق ـ يهمس في اذن ـ الحاجة ـ كما هامسه ـ الحشائشي ـ وصفق صاحبه لا يفقه همسه جازما له بالحلال والحرام ان امر القطة السمينة بات في يده وسبه ـ اسحاق ـ سبا بالغا حتى كادت القهقهة ان تخرج بهما عن عالم السوق الخرساء المستسلمة .

واذنت سالمة العصر تغمر ـ الدريبة ـ بالحركة وخرج ـ الكاهية ـ مع حاشيته وراء الضابط وعساكره الى البطحاء الكبرى ودوى صوت المعلم ـ دبة ـ ينادي الناس الى افضع ما رات العيون في البلد وتقززت النفوس وتضاربت الخواطر واحمرت العيون .

وخيم الصمت ثقيلا كان ـ عزرائيل ـ قبض خناقها في

هذه الساعة لا يدع حركة تهب او خطوة تدب حتى اولئك الذين لا تردهم القنابل عن كنوز ـ سوسة ـ ينهبون ويسلبون لا يخافون كاهية ولا يخشون حواشيه المنتصبين في كل طريق يغتصبون اسلابهم ويبتزون متاعهم .

ودقت الساعة ووقف المتهمون بالاسلاك وسط البطحاء ووقف الكاهية مع مشائخه وحاشية الفرنسيس في البلد ووقف الجند بالسلاح الجبار وتسابق الصبية كانهم ازاء مشهد عساكر المظلات يتساقطون من الطائرات المتعالية في الفضاء البعيد .

وسقطت السوق كانها تلفظ اخر انفاسها ازاء ما خيم به المساء جبروت ووقفت ـ المدامة ـ مع زوجها العسكري كانها تشاهد قططها تقتل فارة مستهترة وسط موكب من المتفرجين .

وتقدم الجندي يغطي وجوه الابرياء المستسلمين الى نهايتهم قبل ان يدركهم الرصاص واستعد الاخرون يصوبون نحوهم السلاح وانكمشت الوجوه واقشعرت النفوس وزاغت العيون وبئست القلوب وتضعضعت الشمس في سماءها العابسة كانها تستنكر هذا القهروت واستسلم الواقفون صم بكم الى غضب من ربهم كان قلوبهم صخر لا تعرف الرحمة .

ودوى الرصاص يمزق المسامع ويرج الافاق . وفرت اسراب الحمام الوديعة من الساحة مفزوعة وتراجع الصبية صامتين معذبين ورجع الكاهية مع حاشية ـ الدريبة ـ مطاطئا

وركب الضابط مع عساكره مزهوا منتصرا .

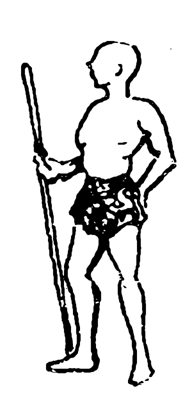
وخيم الموت ساعات مرة على اهل السوق ازاء الجثث تقطر دما مسفوكا امام اعينهم وتنهمر دموع اهليها حارة معذبة . وبات الحس وتسربلت السوق في رداء قاتم يكاد الحزن ان يردها قبورا باحياءها المستسلمين .

ورد ـ الحشائشي ـ بابه مقهورا لا يكتم دموعه حتى اذا كان هو لا من هنا ولا من هناك ، ما دام يعيش لا قسمة ولا نصيب مع هؤلاء او مع الاخرين ، ابدا هو رب المقهى الحقير وكلب السوق الكبير في خدمة ـ المارشنوار . واطل ـ اسحاق ـ من عريشه فوق السطح لا يخال الرصاص يضرب ابناء العرب على قارعة الطريق دون ان يرده رجال البلد العناترة الذين يقتحمون ـ سوسة ـ كلما هجمت الطائرات تصب وابل قنابلها تاركة فيها براكين نار ورماد وما اكثر الرجال في هذا البلد من الذين لا تحنى قناتهم اكياس القمح التي يتبارون في حملها ، ورفع رقمها ـ العضروط ـ الى خمسة ، مشحونة قمحا كانه عربة . وقهقه اسحاق يسب رهط العرب اذا اقاموا في دنياهم لا يحسنون غير ضرب العمود وحمل الاكياس حتى بات الرصاص يمزقهم اشلاء في بطحاء السوق .

واطل ـ الحاجة ـ متضاحكا يفاخر صاحبه بالقطة السمينة جاهزة للقدر كانه اقتنصها ساعة وقفت ـ المدامة ـ زاهية متكبرة . وتهلل وجه ـ اسحاق ـ متشفيا من هذه العجوز التي تكرهه فوق ما تكره اهل السوق جميعا لا تطيق

ان تقبله في دارها مع الشاربين كانها تضمر له عداوة قاطعة دون سبب قبل حلولها في البلد شاربة او متجسسة .

واستهتر ـ الحاجة ـ يباهي صاحبه بما له عندها مــن حب وصفاء واستفزه ـ اسحاق ـ يرميه باليهود والنصارى لا سبيل ان يلاقيه م لا يعرفه دون ان يقول ـ فرخ طليــان ـ او ـ جويف ـ وسقد الحديث بين الصاحبين مختبلا كان وقت الكيف خيم به الليل الكئيب اذنا بالاسوار والاقمار وبتعتعــة الحشيش .



— 4 —

عاد النهار وامتلا البلد بالعساكر يشقون أمعاء الـدور المشحونة بالفواضل من اشلاء الشيش ومتاع السلب والنهب وطاف الشرطيون مع الجنود المدججيـن يتقدمهـم الكاهيـة وحاشيته يجمعون المشبوهين وسط البطحاء كان الرصـاص بات شفاء هؤلاء العرب الاجلاف الذين دفعهم الطمـع وراء المهملات مـن متاع الالمان الهـارب او بضاعـة الانجليـز والامريكان التي يبيعها عساكرهم الى ابناء البلد وحميت لها سوق المارشنوار – في افاق المملكة .

واصاب الحشائشي صفعة كادت ان تاتي علـى بقايـا اضرايه دون ان يكون ادخر فـي داره غير اوعيـة تافهـة لا ينتظر ان يدفع ثمنها هذه الصفعة المرة لولا وشايـة المدامـة الخبيثة وسلخ السياط جلد اسحاق مع المحشورين في زمرة المتهمين بالسرقة والتلصص كان – المدامة – اثرت ان تنتقم لقطتها البريئة التي فقدتها في ساعة غامضة لا تفوت – اسحاقا او – الحشائشي – .

وابتلعت الثكنة من رجال البلد كل الذين اغرتهم صفيحة او جعبة او قبعة ليردها في داره غيرما كانت عند العسـاكر ونال – بابا محمد – الشخ الهرم اكثر مانال – اسحاق – واهل

السوق وراء قبعة من الحديد غنمها لتكفيه مشقة البول خارج الغرفة في الليل .

وانهال الناس الذين سلموا من شر هذا اليوم ، يردمون كل ما يريب العساكر ويرمون قاع الابار والصهاريج لا يتركون اثرا من اثار الحرب والقت بعض النسـوة مدخرصونهـا او بضاعة زوجها من الشاي والسكر في اعماق المـاء قبـل ان يقدمن الكعك ـ والمقروض ـ يستملن به العساكر والشرطيين وكادت ـ امك صالحة ـ ان تفقد عقلهـا من شـدة الخـوف لاتخال يد الكافرين تطول حرم الصالحين الـذي لم تدركـه الحرب بما أدركت المواطن الاخرى .

ومسك الجنود خناق الشوارع في ايام عصبية يجوبون الليل بين الازقة ويدقون الابواب المستسلمة منادين باسمـاء النسوة صلفين مستهترين :

... فاطمة ... مبروكة ... فاطمة ... مبروكـة ...

وتفشى سطوهم على الدور ويقتحمونها بالرصاص حتى كاد الناس ان يهجروا بلدهم ليعتصموا بالكهوف والمغاور كما نجا اهل سوسة باعناقهم وذريتهم .

ووقف العساكر في ليلة ثملى يدفعهم الصلف والاستهتار الى باب ـ امك صالحـة ـ وبناتهـا واحس ـ اسحـاق ـ هديرهم وصخب حركتهم مشيرا الى صاحبه الحاجة الـذي راحت الزطلة تطير به وراء حمامته النشوى تزق مـن لحـم القطة السمينة لاسبيل ان يفقه قولا او يحس وخزا .

وتسلل ـ اسحاق ـ الى عامل ـ الحمام ـ في الفرن يثيره بالاشارة ويدفعه الى قذفهم بالحجارة . وشخص الرجل الابكم في الظلام كانه يبحث عن حيلته اليهم ولم يلبث ان تسلل بين السطوح المتلاصقة زاحفا متهيبا واطل متسترا محترزا حتى ظهر له بعضهم مترنحا مسترخيا من اثر الشراب وتماسك الا بكم حينا قصيرا وقذف هامة احدهم وتقهقر مختفيا لا اثر له في ظلام الليل . ولاحقه الرصاص يمزق في جوانب السطوح الهامدة . واشتد الصخب والصراخ واصطكت فرائص ـ اسحاق ـ خائفا ان يقع الا بكم في قبضتهم او ينقضوا وراءه باحثين مفتشيق ، وتراجع ينادي الحاجة هامسا كان الدنيا التي ترقص امامه سكرانة معتوهة بدد الرصاص ـ زطلتها ـ وتلعثم صاحبه مرتبكا يسب له دين التكروري الخبيث الذي اوحى اليه ان يلعب هذا اللعب .

واطل الفجر هادئا وانتفض الا بكم من كدس التبن الذي ارتدم فيه واقبل على الفرن يحشوه بالحطب وهجم ـ اسحاق ـ يكاد ان يخنقه لفرط ما اثاره بابطاءه وخطة اختفاءه لوجد العساكر السكاري وراءه لوقع هو وصاحبه في قبضتهم وتضاحك الابكم يشير الى ضربته التي كالها في الظلام الحالك وقاطع الحاجة يدفع تومه الثقيل ويلعنهما اثنين لا ثالث لهما غير ابليس اللعين .

وطار الخبر تبرق به العيون متحاملة وتستقيه الدربية متهيبة ان يجيء اهل البلد بما جاءهم قطع الاسلاك والمخابرات ويراه حرفاء السوق باسا شديدا وانتقاما رهيبا واخرس اسحاق لا يطيق ان يسمع هذه الرواية ليصفر وجهه وترتعد

فرائصه . وجد ضابط العساكر صارما يمنع الجولان بالليل وينهى رجاله عن استفزار العرب الراكدين .

وانشرحت النفوس واغتبطت امك صالحة ـ تقدم قرابينها الى اولياء الله الصالحين الذين لا تخفاهم خافية وحضروا لها يحمون دارها ويقذفون رؤوس العساكر بالحجارة وامتقعت ـ المدامة ـ من نجاة هذا المارد الذي تحدى القوى الجبارة وسد باب الرزق في وجهها هي التي تبيع الخمر وتداوي البغال وتربي القطط والكلاب ويهابها اهل السوق جميعا لا يكتزون لها غير ارباحهم من المواسم الغنية التي ينفقونها في حانتها اكلين شاربين اذا جاء دورهم بعد الكاهية وحاشيته مع من يستدعون من الشرطيين والمراقبين والقوادين عربا يعبدهم الناس ويهودا يشترون الرقاب بالمال .

ونشطت السوق وتحركت الحياة باسباب الرزق واضحى البلد مصنعا هائلا للحلفاء التي التزم ـ خياط ـ اليهودي بصفقاتها كما احتكر ـ درموني ـ السواق الزيت والبضائع التي باتت مفقودة [illegible]مش سوق ـ المارشنوار ـ وانفرد ـ كروانة ـ بالنقل وحمل البضائع برا وبحرا .

وانقطع الزيت وارتفع ثمنه وانحط الناس الى زيت الكاكوية لا وجهة امامهم غير الاستسلام الى مشيئة هذه الايام العصبية كما استسلموا الى حكم الكاهية ودريبته التي يستبد في امرها بابا الاخضر ـ فوق ما تستبد ـ ما دام قطاطس ـ في حقه كلما شرب وعربد لا يريد ان يدفع ثمن اقداحه اذا لم يكن في دارها من يدفعها ولا تدعه يحرك

ساقا او يزيد خطوة قبل ان يمـد النقود كـافرا متلعثمـا لا يشفع له ان يكون خادم كاهية او امير الباي تونس المعظـم

وسعت الايام في طريقها وانهمك اهل البلـد في خدمـة الحلفاء واسواق ـ المارشنوار ـ المتفاقمة بعد انقطاع الزيت والسكر والشاي والقهوة . وخلا كرسي المقهى الطويل الـى قطط ـ المدامة ـ وكلابها تكاد أن ترد ـ الحشائشي ـ مجنونا كلما اجتمعت مع ـ اسحاق ـ و ـ الحاجة ـ هـذا يقـذف والاخر يلقف لا يقيلانه قبل ان يمد لهما قرطاس ـ التكروري ـ يائسا مستسلما كما يمد ـ بابا الاخضر ثمن الاقداح كافـرا متلعثما .

وانفجر صوت المعلم ـ دبة ـ ينادي اهل البلد ان يسمعوا ويعوا تراتيب العيش بعد عواصف الحرب . واستوى الناس وقوفا كانهم طابور يؤدي واجب الطاعة لقائده الجبار وتردد بوق المعلم ، ـ دبة ـ صارخا صاخبا .

... يا عرب ... يا مسلمين ... يا موالي البلد ... وسكت ليرد النفس حتى كاد المنصتون ان يرتدوا على اعقابهم هاربيين مشفقين من حكم الاعدام الذي يلاحق به ـ الحلفاء ـ ابناء العرب الذين اخلصوا النية او العمل مع ـ الالمـان ـ وبصق الحشائشي مستنكفا من هذا الصوت المنحوس واختفى اسحاق يكاد ان يندس في بالوعة ـ الحمـام هامسـا الـى ـ الحاجة ـ ان ينجو من هذه الاعلانات الخطيرة وعاد الصوت يمزق في المسامع مدويا .

... يـا عـرب ... يا مسلميـن ... المعـاش ... :

بالبونوات تسجلوا عدد رقابكم عند المشايخ ... ورد الناس النفس مضطربين لا يفهمون اذا كـانت هذه المراسيم تريـد اعناقهم جميعا ليصفو البلد الى اليهود والنصـارى وتبصـق ـ الحشائشي ـ هامسا الى ـ لامين ـ ان الاخبار تجتازهما في هذه الايام ولم يعد من ينفذ اليها او تنفذ اليه .

وعاد البوق يدمدم مقاطعا خواطرهم المفعمة :
... يا موالي البلد ... الخبز بالبونو ـ السكر بالبونو الزيت بالبونو ... كل شيء بالبونو ... الكمية نهار الاثنيـن ... بالبنوات عند المشائخ ...

وعادت العيـون تلتقـي حائرة لا تفقـه جوابـا ودعـا الحشائشي ربه ان يقطع دابر الخبز من الدنيا ليمـوت مـن يعيش بالخبز جائعا وتكهن ـ لامين ـ ان وراء هذه الاخبار اسرارا غارقة اذا كان الالمان قد مسك عنهم مخازن العيش اوسد فيوجوههم مسالك البر والبحر ليقتلهم جوعا ويقتلواقوم العرب انتقاما وخاف اسحاق ـ ان ينقطع الخبز وياكل الناس بعضهم لا يفهم هذا ـ البونو الذي يعلن عنه المعلم دبة مجعجعا .

واشتد الهمس وتضاربت الاقاويل واختلفـت التاويـل وارتبكت حركة السوق كان اوامر صارمة صدرت عن المعلم دبة في حق الخبز والسكر والشاي وجميع ما يلـزم النـاس لمعاشهم في كل يوم بعد ان اجتاحت الحرب مكاسبهم ومدخر عيشهم .

وعاد الحشائشي يسال صاحبه لامين عن هذه التراتيب

الجديدة دون ان يجيبه باكثر من تكهنات لا تفيد شيئا اذا لم تكن هذه ـ البنوات ـ من عند المشائخ كارثة فيها ما فيها من الاخطار والا لاعيب .

واختفى ـ اسحاق لا يامن شرا على راس الخبر ولا يحال البنوات من عند المشائخ الا احابيل مشنقة ينصبها العساكر ليقتلوا ابناء العرب جوعا واهتدى الحاجة مجتهدا انها كميات هائلة من الدقيق والزيت والسكر يجازي بها الحلفاء اقواما ثبتوا في مقاومة الالمان واستصغر ـ اسحاق ـ هذا الراي السخيف لا يطمئن الى تراتيب تمس خبز الناس واقسم الحاجة بالحلال والحرام انها في صالح العرب تعلمهم العيش بالحساب ودعاه ان يسال ـ الحشائشي ـ اذا كان لا يفهم كذلك وابى اسحاق ان يصدق هذا الراي مشيرا بالمدامة التي لا يفهم غيرها في السوق اوامر الحاكم واسبابها .

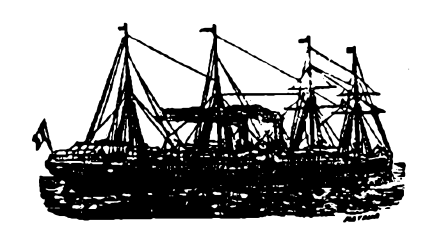
وتدحرج ـ اسحاق ـ من السطح يسال رب المقهى الذي انفجر في وجهه باصقا يسبب له الطائفة والقبيلة كانه يسد الباب عن قرطاس التكروري ورجح لامين راي الحاجة مجتهدا وتكهن اسحاق ان النصارى يتدبرون خطة لا تتدبرها الشياطين ودوح الحشائشي يجيب انه اشطن ما خلق الله على وجه الارض .

وطاف الشرطيون في رحاب السوق كانهم يتشممون رائحة الاخبار من وجوه الناس المضطربين وتسلل ـ الحشائشي ـ من مقعده متباعدا عن الشبهات لا يستقر في راسه ما اختلفت به التعاليق وفاضت به الخواطر وراء بوق

المعلم ـ دبة ـ الذي كاد ان ينسف حنجرته لا يرحم النــاس ابدا يطالعهم بما يبلبل افكارهم ويشتت كلمتهم .

وحملقت ـ المدامة ـ بين الجالسين نافذة الى اعماقهم وقفز الحاجة لفرط ما راها ترشق صاحبه ـ اسحاق ـ كانها تتوعده دون ان يكون اساء اليها فــي حياته ولــم تلبــث ان تقدمت نحوه وجذبته من اذنه تساله لا يفهم منها كلمة ، ودخلت وراءه الى دارها وردت الباب ردا صاخبا وانهالت تضربه ضربا قاسيا قبل ان تنادى ـ بابا الاخضر ـ تشكو اليه اعتداءه على قطتها البريئة وانضم اليها الحاجب ضاربا منتقما من هنا الكلب المتسكع لا تسلم منه قطط او كلاب وساقه الى السجن ليرتدع ويتنهى عن المدامة ويرعى حقها وحق قططها وكلابها .

وانفجر الحشائشي يضرب كفا بكف شامتا متضاحكا يناور ـ الحاجة ـ الذي خيم وجهه عابسا كان ليله ظهر طويلا ثقيلا يقضيه وحده لا تلذ فيه السباسي دون ان يكون معــه اسحاق ينفخ في سماءها عابثا . وصفق لاميــن ان صاحبــه لا يخرج قبل ان يشرب بابا الاخضر عند المدامة اياما وليال لا يدفع ثمنا وتقهقر الحاجة متحاملا يسعى في طريقه نحــو السطح عابســا مقطبــا .



— 5 —

راجت اخبار الكمية وتراتيب
ـ البنوات ـ يردها كل الذين سمعوا بوق المعلم ـ دبة ـ خطرا مفزعا ـ وراح اهل السوق يفسرون وتهاطل الناس على حوانيت المشائخ يسجلون عدد رقابهم ويستلمون مقتطعاتهم لاقتناء الزيت والخبز والسكر والشاي والقهوة من حوانيت المتاجرين المقربين التي اختارها الحاكم تاركا لاصحابها امر توزيعها مستبدين فيها استبداد العساكر الصلفين على ابواب الناس وحريمهم .

وانهمك اهل البلد في خدمة الحلفاء ينفقون محاصيلهم منها في شراء المقتطعات وادخار المواد قبل يروحوا متاجرين مغالين وهجم اهل البوادي يملؤون ـ فنادق السوق والجنائن والضواحي وراء العيش الذي بات بابه موصدا في ارضهم خلالها جائبين متجاوبين :

... ياكريم ... متاع الله ... يانائب نوب ... ينوب عليك ... ويرحم بها والديك وتحامل الحشائشي مستنكفا من هذه الوجوه المتوافدة يقابلون عين الشمس طول النهار وجهة امامهم غير الدور القريبة كلما اظلم الليل ـ يتسربون ويقتلون القمال بين اظافرهم متحككين كان وباء الجرب

استفحل فيهم من الجوع والعراء وامعن ـ الحاجة ـ عابثا يشنيهم الى ـ المدامة ـ لتستامر عليهم ـ بابا الاخضر ـ الذي لا احد سواه يستطيع ان يسلخ جلودهم بالعصا وتداويها لهم بالكبريت او الشراب كما هي تداوي الحمير والبغال .

وخرج ـ اسحاق ـ من سجنه يواجه باب المقهى فوق عتبة ويحملق بين الوجوه مرتبكا وقابله ـ الحاجة ـ فوق عتبة يثيره متعمدا :

... لعن الله من لا يقول الحق ... لو شهدت بالحق ؟ كنت دخلت السجن ؟ وتبرم ـ اسحاق ـ يسب صاحبه :

... انت سرقت وانا وقعت ... ياولد الحرام ... اعرف ادوارك ... انت قلت لها ... او الحشائشي ... اعرف الداء العقار ...

وتبرا الحاجة :

... انت تعرف من يشي بالناس ...

وقاطع ـ الحشائشي ـ باصقا على المنافقين :

... لعن الله من لا يقول الحق حتى على نفسه ...

واحمر ـ الحاجة ـ متحاملا :

لعن الله المنافقين والطماعين والقوادين ... الف لعنة على الكلاب السفهاء والحشائشية ، الجبناء ... اشهد يارب ... اشهد ... ووقف رب المقهى يهدد بالوشاية :

... بالحـــرام ... بالحــرام ... افضحــك ... انــت سرقتها ... انت ... اعرف انك انت الذي سرقت القطة ... واسحاق مظلوم ...

... وضغط ــ الحاجة ــ لسانه مشيرا :
ولماذا سكت ؟ ... قلت ... انت او اسحاق ... قلــت ...

وقاطع ــ اسحاق ــ واثقا انها لا تريد غيره :
... بالحرام ... لو قلت ما شئت ... هــذه الافعــى الرقطاء تريدني ... لا تريد غيري لو مسها الجن ... لا تتهم غيري انا ... بالحرام ما بت في الحبس ليلة ...
وجاد له ــ الحاجة ــ مكذبا :

... تسلي نفسك ... اعــرف انك تسلي نفســك ... فقــدك انسطح ... وفقدتك ... الحبس مريا اسحاق ــ وامر منه انك وقعت لا تعلم ولا تدري ...

واكد ــ اسحاق ــ جازما :
... بالحرام ما بت فيه ليلة ... امك صالحة ــ برت بي فــي في دارها ... اكل واشرب واظفر مع بناتها الحلفــاء الــى الفجر ...

وقاطع ــ الحشائشي ــ متعجبا :
... تاكل وتشرب ... لو سمعك ــ بابــا الاخضــر ــ ياولد الحرام ...

وقاطع ــ الحاجة ــ
... كذب ... كذب ... انت تدخل دار ــ امك صالحة ــ

في الليل ... واقسم ـ اسحاق ـ اليمين قاطعا كل شك :
... بالحرام اسهر الى الفجر قبل ان ارتمي وراء باب السجن انادي ـ بابا الاخضر ـ او المعلم ـ دبة ـ متماوتا ... لا اكف حتى يدخل هذا او ذاك بالعصا لا يتركني دون ان يسقط لاهثا منهوكا وابقى انا شاهقا متبكيا لا امس خدمة من تلك التي يامر بها المساجين بين الحيطان المتهدمة واكداس الهشيم المتراكمة

واستخف ـ الحشائشي :
... البنات مخطوبات اذا خامرك ان تمتلك نصف دينك بعد ان ضاع نصفك في الدنيا وراء ـ التكروري ـ

... وتحمل ـ الحاجة ـ متهكما محتقرا :
يادين الدنيا ... سبحان من علم ... مسمار السوق ... زميم الكلاب واحرم رب المقهى يهدد متوعدا :
انا بريء من ذنبك ... اعرف غيري ... ابعد عني ... ماذا تريد مني ... لا اكلمك ... لا اسالك ... لا اجاوبك ... ماذا تريد ... بالحرام انادي لك ـ بابا الاخضر ـ اشكوك الى الكاهية ... اقاومك بالعمود ... انساني ... لا تعرفني ولا اعرفك ... افهم نفسك ... بليد ... ركيك ... ثقيل ...

وتدخل ـ اسحاق ـ ينهاهما عن العراك وتفيض عواطفه بالحديث عن ـ فافاني ـ التي احس انها تحبه خلال هذه الاقامة القصيرة ودعته الى الطعام والزيارة مستانسة . ودوح ـ الحاجة ـ مزدريا هذه المنامة لا يرى غير رب المقهى

كفئا ـ لامك صالحة ـ وثار ـ الحشائشي ـ يسب لهما الطائفة والقبيلة مهددا ان ينادي حاجب الدريبة ليرحل بهما عنه لو دفع اليه اكثر من ـ المدامة ـ وتحكك ـ اسحاق ـ يطيب له ان يقيم عمره في السجن ليسير مع البنات يعين على ظفائر الحلفاء او يكنس تراب الارض تحت اقدامهن ...

وانفجر ـ الحشائشي ـ ينادي الناس صائحا :
اشهدوا ياعباد الله ... انا بريء منهما ... لا اظلم احدا ... ياعباد ربي اشهدوا .

وتمرد ـ اسحاق ـ لا يتزحزح شبرا عن حقه في شارع ـ البايك ـ وارتمى رب المقهى في خدائه ماسكا مستميتا .
... كلب ابن كلب ... سارق .. غدار .. لا اقيلك ... بالحرام لا اقيلك انا بريء منك ..

واشتد ـ اسحاق ـ متملصا ينهي هذا الرجل العنيد ويهدد ان يصفعه بامر ما صفعه العساكر يوم حشروه في البطحاء . وارتفع رغاء الحشائشي . وهب اصحاب الحوانيت يتفرجون وتدخل ـ الحاجة ـ ينهاهما وتحلق المارون يفصلون بينهما . وخرجت ـ المدامة ـ تفرك عينيها متحاملة وارتبك ـ اسحاق ـ يسترق النظر الى وقفتها الماكرة . وانقض هاربا خشية ان يلاحقه حاجب الدريبة ويعاقبه باكثر من الضرب والحبس .

وانفجرت القهقهة وراءه كان خوفه الدائم من عدوته يجتاز به حدود السوق ما دامت لا تراه دون ان تكيد اليه

وتراجع الناس يتحلقون ازاء رجل بدوي وقف وسط الشارع يقشر تين الهندي بين اظافره ويقذفه في الفضاء ويتلقفه في فمه المفتوح لا يخطيء واحدة ابدا واخرس ـ الحشائشي ـ لا يزيد كلمة امام المعجبين الذين سدوا طريقه كانهم امام اعجوبة من اعاجيب الدهر .

وتجلى النهار وامتدت صفوف الواقفين امام المخابز والحوانيت ينتظرون دورهم في المائدة القصيرة التي جلس ربها يقص ـ البنوات ـ متكبرا منتفخا كان حياة العباد باتت في قبضته وتراجع ـ اسحاق ـ يائسا ان يقف صاحبه ـ الحاجة ـ مع الناس ويجيئه بالخبز ـ السوري ـ الذي تزدحم وراءه الصفوف كانه معجون بالعسل .

ووقف ـ اسحاق ـ في زمرة المنتظرين يتقدم خطوة خطوة لدوره في خبزة دون حق مكتسب . وانتفض الموزع مهددا ان ينادي ـ بابا الاخضر ـ ويدكه في الحبس كانه لا يعلم تراتيب ـ البنوات ـ واعتذر ـ اسحاق ـ انه خارج من قفص الدريبة لا يعلم بما بات اهل السوق يتدبرونه . وجذب ـ الحاجة ـ كتف صاحبه ساخرا محتقرا ما دامت ـ المدامة ـ تكفيهما مشقة الوقوف والبنوات ـ وقهقه ساخرا يتحدى المخابز والدبازين داعيا ان يقطع الله عنهم الماء والهواء ويرزق العاطل والبطال ويغفر ذنب السارق والخطاف ودعاه ـ الحاجة ـ ان يعود معه الى ساحة المقهى ليوغرا هدر ربها شماته وانتقاما حتى يجيء الليل وتطيب السهرة وتلذ ـ الزطلة ـ

وعاد النهار بالناس متزاحمين امام المخابز وحوانيت المتاجرين ، لا سبيل ان يعلنوا عن الكميات دون ان يعتذروا عن نهايتها منتحلين شتى الاعذار لتصريفها في سوق ـ المارشنوار ـ المزدهرة ووقف ـ الحشائشي ـ ازاء مجمرته يرد حديث ـ سي لامين ـ عن كلاب الليل والمستقطعين في السلب والنهب وسفك الدم وعن المنبثين وراء الاسواق الحامية من يهود سوسة وغيرهم ...

وطاف رب المقهى بين الحوانيت باسطا كفه تحت الطبق مترنما مبعثرا :

... عم الحاج ... قهوة ... بابا صادق ... قهوة ... وعم علي ... قهوة ... نهارك زين ... نهارك سعيد ... قهوة ... يا مريم وعلاش دلالة ... يا مولاة العين ذبالة ... ربي كريم ويحب الكريم ... قهوة ... قهوة ... يا مولاة العين ذبالة ...

وتسابقت اصوات القوالين والباعة المتجولين تقتحم السوق ، شاهرة بضاعة الفول المطبوخ باغنيات رتيبة معهودة ابدا هي :
... يا ربي الاعمال عليك ... يا الله ... فول سخون وبالكمون ... ذواب هالفول ان شاء الله ...

وقاطع ـ بابا الاخضر ـ ينادي مدمدما ان يدور الطبق في الدريبة وارتبك الحشائشي في خطواته كان صوت هذا الرجل البغيض اضحى عصا تتهدده في كل صباح ووقفت

ـ المدامة ـ وسط كلابها وقططها المتلاعبة كان مشهد الصفوف المتراصة ازاء الخابز تشحن كبرياءها .

وعجت السوق باهلها يسعى خلالها كل سعيه وجاب الشرطيون بين الازقة والمخافر كان هنالك سرا مريبا تبتلعه الحيطان الخربة وامتلات العيون بالنظرات الغامضة وتهكم ـ الفرطاس ـ في حانوته التي يبيع منها الفلافل ... يانهار مبروك ... يانهار سعيد ... الفار في الغار والقطوس قدام الدار ...

ودعاه ـ بابا صادق ـ ان يكف لسانه :

... لا رايت ولا سمعت ... كلمة واحدة وترمي كل الرجال يخوضون الخنادق وراء فارة لا من راها ولا من سمع بها ...

وتدحرج ـ اسحاق ـ من سطحه مع ـ الحاجة ـ يواجه باب المقهى فوق عتبة ورابته النظرات الشزراء كانها تتهدده دون ذنب وجلس ـ يواجه فوق عتبة ويرمي كلماته على غير هدى حتى جاوب ـ الحشائشي ـ يهدد بالشرطيين وبينة ـ سي لامين ـ

وتنهد ـ الحاجة ـ يسب الكلاب :

... الكلب والجرب ... الكلب واخوه ... لا يسلم احد من العض والكرير ...

ورد ـ الحشائشي ـ متهكما ...

الكلب الذي سرق القطة ودك صاحبه في الحبس ...

ونهى ـ سي لامين ـ عن هذه الفاتحة :
... عفا الله عما سلف ... أنصلح خير ... نجلس ساعة لا عراك ولا خصام ... ساعة واحدة نرجع اصحاب ... وكفى ...

ودوح ـ الحشائشي ـ يائسا ـ
... تصاحبه عقرب او افعى ... اما انا اعرف شره ... هو واسحاق ... الكلب واخوه ...

وانقض ـ اسحاق ـ في عنقه يقبضه :
... انا احبك ... ياعم ... بالحرام لن اخاصمك ... انا احبك وانت تحبني ياسلام على الدنيا ... الناس فيها اخوة ... واحباب ... واصحاب ...

وتملص رب المقهى مدوحا :
... ابتعد عني ... خيرلك ... اصبح الى ربك ... ابتعد عني لست ـ درويشا ـ عندك لتقبلني ... بالحرام انادي لك الشرطيين ... تراهم في غدو ورواح ...

واستوى ـ سي لامين ـ مقهقها يدق كفه على كف ـ الحاجة ـ يطيب له ان ان يجن ـ الحشائشي ـ ويخرج من عقله متبرما من معانقة ـ اسحاق ـ وقبلاته وقاطع صوت المعلم ـ دبة ـ مدمدما في ارجاء السوق :
... ياموالي البلد ... ياعرب ... ويامسلمين ...

وارتبكــت الحركــة وكــف ـ اسد اق ـ ودخــل ـ الحشائشي ـ يكاد ان يندس في جوف الدرسي الطويل ولا جوف يتسع اليه ليهرب من هذا الصوت المنحوس وتقهقر ـ اسحاق ـ وراء ـ الحاجة ـ يكاد ان يسقــط وجمــد ـ ســي لامين ـ لا يقوى على حركة :

وعاد صوت المعلم ـ دبة ـ مناديا وخرج اهل الســوق يكاد بعضهم ان يركب بعضا ليمزقوا صدره ناهيين سر خبره اذا كان الحاكم تراجع عن كميات العيش ـ بالبنوات ـ تاركا العباد يموتون جوعا كما ماتوا في عام ـ العبيدية ـ او عام ـ الروز ـ وما داهم اهل هذا البلد من مصائب الدهر وكوارث الجوع .

وقاطع المعلــم ـ دبة ـ يعلــن لهم عن اختفــاء بعــض ـ الالمان ـ في زوايا البلد مخذرا مهددا متوعدا . وتنفــس المنصتــون المعذبون لا يهمهــم ان يختفــي ـ الالمــان ـ او ـ الطليان بعد ان طوت الحرب صفحتهم طيا خاسرا تاركين بلاد الناس مدسوسة بالمغاور وانواع الفيروان والسموم والديدان .

وامتقع ـ سي لامين ـ لا يطيب له ان يفوته خبر كهــذا الذي تدفع الشرطة ثمنه غاليا من جيوب العرب في هذه السوق او في غيرها .

وتضاحك ـ الحشائشي ـ كانه ادرك الفارة في غارها :
... السردوك ... تعرفه ... في النهار يصلي وفي الليــل

يغني ...

والتفت ـ لامين ـ شاخصا كان الرجل يريبه :

... السردوك ؟ ... تعرف سره ... وجه نظيف ... كدرون متقطع ... وصمت طويل كانه ابكم لا يفهم غير الاشارة ...

وسهم ـ لامين ـ كان الشك يداخله في امر هذا الرجل الغريب الذي لا يظهر في السوق الا نادرا ولعن ـ اسحاق ـ الشيطان ـ لا يصدق هذا الظن . ومهمه ـ الحاجة ـ متباعدا عن الشك واليقين لا يهمه ان يحكم الدنيا ـ المان او فرنسيس ـ وازدراه ـ اسحاق ـ متهكما يثير الفتنة بينه وبين ـ الحشائشي ـ الذي اغرق اليمين هامسا ان ـ الالمان ـ الجبار لا يغلب ولو بعد الف عام وقد وردت اخباره في الكتب ويعرفها العلماء والراسخون في بحار العلم الغارقة .

وتذبذب الحديث انا بين الجالسين في ساحة المقهى حتى فاجاتهم اصوات الشرطين تنادي مبعثرة :

... شد عليك ... شد ... عرض ... شد ... عرض ...

وارتفعت الابصار متهيبة كان حصانا مستهترا من خيل ـ البليك ـ هجم راكظا في طريق السوق وانقض ـ السردوك ـ قافزا يحتمي بالابواب متسترا بالجدران حتى كاد اهل السوق ان يصفقوا معجبين من مهارته اكثر من قدرة البدوي على حركة شدقيه والتقاط تين الهندي من قبضة الفضاء .

واهتزت السوق وامعن الشرطيون يحاصرون ـ السردوك ـ الذي اشتد قافزا مراوغا كانه نمر مستهتروهم

ـ لامين ـ ان يقف ورده ـ الحشائشي ـ مفزوعا وانقـض ـ ـ السردوك ـ يمزق امام ـ الدريبة ـ تلاحقه الاصوات :

... شد عليك ... عرض ... عرض ... شد عليك ...
ووقف عمر الابلق ـ فاتحا ذراعيه لا يخال قطا هاربا يفلت من قبضته لو ركب ظهر السطوح قافزا وتـدافع ـ السـردوك ـ مشفقا ان يدركه الرصاص لا يتردد ان يغمس السكين في صدر هذا الغر المتعنت .

وطار رغاء ـ الابلق ـ متقطعا واشتد شخيره محتضرا وتداعى يئن متخبطا في دمه لا يقربه حتى الشرطيـون كـان ـ السردوك ـ لا زال ماسكا زمام السوق شاهـرا خنجـره الفتاك .

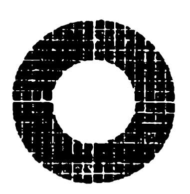
واشتد الصراخ والعويل وجرى العرب المسلمون يسترون هذه الجثة البريئة ويتحاورون مغمغمين معذبين ازاء ام ثكلى لا يفوتها ان تطلي وجهها من سواد وتغطـس جسمهـا فـي ـ النيلة ـ وتقطع لحمها باسنانها على ابنها الـذي تجهـز عروسته لايام قريبة .

وبات الحس وسقطت السوق خرساء مرتجفـة ووجـم ـ الحشائشي ـ لا يخال هذا الرجل الغريب يهدر دم العـرب في قلب الشارع . وقطب ـ لامين ـ كان موتة ـ عمر الابلق ـ اجتاحت احاسيسه بالكمد والاسى وناور ـ الحاجة ـ لا يكترث لموت او حياة ـ مهددا ان يفضح السر ـ وفتح ـ اسحاق ـ عينين واسعتين كان سر ـ السردوك ـ بدد ظنونـه وعلمـه

اليقين .

وامتلات دار الشرطة من اهل البلد وسلخ السياط جلود المشبوهين حتى يقولوا حقا او باطلا مالا يعلمون عن مخـافر ـ الالمان ـ المندسين سيق رب المقهى مع ـ لامين ـ كما سبق ـ اسحاق ـ والحاجة ـ الى نصيبهم من الاستنطاق المرير والبحث الطويل وقال ـ الفرطاس ـ والابرص ـ ما قال الا بكم والاصم وذاق الاعمى والاعور ما ذاق الابله والمغفل ابدا هي العصا تاكل قلوبهم وتدمي اجسادهم او هي القيود ترزح بهم شماتة وانتقاما .

واشفق الناس خوفا من الرصاص اذا لم يهد الله من يفك محنتهم ما دام لا علم لاحد باسرار ـ السردوك ـ او غيره من مخلفات الالمان في خضم من الوجوه المختلفة التي ترد على البلد في كل يوم وراء العيش العسير من خبز ـ البنوات ـ وزيت الكاكوية .



— 6 —

انغمس عناتره البلد في سوق ـ المارشنوار ـ المتصاعدة تغمرهم بالرزق وتغريهم بالارباح الطائلة من تسويق الزيت المنقطع الى تونس عبر القطار بعد كساد سوق الحلفاء وبوار بضاعتها . وجد عناترة الشرطيين يلاحقون قوافر العربات والجمال المثقلة ويبتزون متاعهم زاجين السجون سالخين الجلود .

وانغمس ـ سي لامين ـ في هذه الخدمة الرابحة دافعا ـ نمرود ـ الجبار كل ليلة باوعية الزيت عبر القطار ليعود اليه كل يوم بالشاي والسكر والقهوة وما انقطع في البلد ودفع ـ الحشائشي ـ صاحبه ـ الارش ـ اللبيب مخاطرا في هذه السوق التي احتكرها الجبابرة من الذين يستخدمهم اصحاب المال ذوي الجاه مستنصرين بالحاكمين في رقاب الناس مقابل كل ثمن يدفعونه لهم مالا ومتاعا .

وبات القطار قبلة البلد لا يحين موعده دون ان يقف الرجال مزدحمين بانواع البضائع ، غادين رائحين ، يضاربون اسعارها ويراوحون غلوها وانقطاعها في ايام قريبة بعد ان سحقت الحرب اسباب العيش وجاءت البنوات بالاحتكار والمحاباة لا تدع الناس ياكلون ماكلهم ويلبسون ملابسهم .

واندفع الشرطيون يراقبون حركة القطار في غدوه ورواحه ، لا تدوي منبهاته كانها ابواق الخطر التي تدعو الناس يقطعوا الاضواء ويلوذوا بالخنادق من شر ما تداهم به الطائرات ـ سوسة ـ حتى تسابق المخابرات قوافل المتاجرين المثقلين بالاوعية المشحونة ، الملفوفة تحت البرانس والقشاشب لا ينفك اصحابها متمتمين باسم الله ، قاصدين متوكلين ان يصيبوا في خرجتهم فوق ما اصابت سفراتهم المتتابعة .

واشتد الصراع بين حركة المتاجرين ومفاجئات الشرطيين . وتلاحقت العربات في طريق ـ تونس ـ يتضعضع بها القطار بين محطاته الكثيرة المسافرين وقوفا يحدقون في وجه الظلام الحالك ويستجلون ملامح الراكبين ، لا تريحهم مقاعدهم قبل ان يقفز القطار لا يقف ولا يتباطء ويخيم الصمت انا ويدوح النوم بالرؤوس الثقيلة من اثر الليالي العسيرة وتلذ الاحلام المعسولة بالكسب والثروة اذا كتب الله ان ينقطع الزيت والسكر زمنا طويلا ، ويعيش الناس تحت كلكل ـ البنوات ـ ويهب الشرطيون بغتة بالسلاح الجبار يحشرون الراكبين جانبا ويبتزون القفاف المشحونة والنقود المدسوسة ، لا يقيلون كل من خامره ان يفر مخاطرا لا تهمه حياته قدرما تهمه بضاعته التي دفع فيها فوق ما تملك يده .

واقام القطار يطوي السكة كل ليلة ويوم بالمتاجرين لا يكف عنهم الشرطيون يوما او ليلة يحجزون البضائع المفقودة متجبرين لا ينطلي عليهم ما يتوسل به اصحابها من اولياء وانبياء مشفقين كان هذه المغانم من الرزق الحلال ساقه الله الى عباده الشرطيين او اشباههم من الذين يقومون اثناء

الليل واطراف النهار يخوضون الاخطار ويذوقون العـذاب .

واشتد اهل البلد يخوضون صراعا حادا مع الشرطيين لا تفوت ليلة دون ان يدفع ـ الحشائشي ـ صاحبه صاحبه الابرش ـ بالاوعية المشحونة كما يدفع ـ لامين ـ شريكه ـ نمرود كل يوم ما دامت السفرة تصيب فوق ما يغـذق يـوم الدريبة على ربها .

وطاف رب المقهى يغالب فحيحه ولهيثه مترنما منتشيا :
الصباح ارباح ... ياربـي الاعمال عليـك ... المـال مالك ... عد بالغائب لا سوء ولا سيئة ... الصباح اربـاح

وعاد يقف ازاء اوعيتـه مرددا ترانيمـه كان مغانمـه من القطار فتحت في وجهه ابواب الثروة ولم يلبث ان بسـط كفه تحت الطبق ومضى يقطع الاشواط هامسا مترنما :
... يا مريم وعلاش دلالة ... يا مولاة العين الذبالـة ومن يحب الزين ... يبيع نوم العين ... يامريـم وعـلاش يامريم وعلاش دلالة يامولاة العين ذبالة ...

وقاطع ـ سي لامين ـ طريق صاحبـه المسترسـل في الترانيم كان حركة القطار واخبار ـ المارشنوار ـ بدلت باب الرزق والثروة وابتسم رب المقهى يجيب ان كمية الزيت والسكر والدقيق نضبت في يومها ونهاه ـ سي لامين ـ عن هذه المراوغة مهتما باخبار القطار وحركة الشرطيين متشاءمـا من ليلتـه الحالكة واستعوذ الحشائشي متطيرا من هذا القال مطمئنا ان رجال البلد المنبثين في اطراف المملكة لا تقهرهم حتى جيوش

ـ الالمان ـ وتقدم ـ سي لامين مضطربا كان ارق الليل يعثر افكاره وافسد يقينه في نجاة القوافل المزدحمة علـى قطـار ـ تونس ـ وتبعه الحشائشي يربت فوق كتفه ويبدد هواجسه واثقا ان الغيب علم مغلق لا ينفذ اليه الاعالم الغيب .

وانصرف رب المقهى منبسط الوجه عاكفا على انيته يعد البضاعة التي استقر يجني منها نصيبا لاكهذا الذي ذاق اطرافا منه مع صاحبه الابـرش ولا نصيـب ازاء مابـات يحتكـره المستاثرون بامر الكاهية في بيع الزيت والسكر والدقيـق ، لا سبيل ان ترد عليهم الكميات الضخمة ويقف لهـا النـاس صفوفا متراصة دون ان يصفعهم صاحب الامر والنهي فيهـا معتذرا عن انقطاعها واعدا بالدورة القادمة في يوم او فـي اسبـوع ، ولا يلبث ان يرد بابـه مستقلا بمالـه من مـارب في اكياس الدقيق والسكر وبراميل الزيت ليخوض في سوق ـ المارشنوار ـ غانما ظافرا .

وتجلى النهار وتحركت السوق تداب في طريق يومهـا وتجاوبت اصوات الفوالين بالنداء المتجدد الى بضاعتهم حتى اذا انقطع الزيت الذي يغمس الناس فيه فولهم . وتدحـرج وراء صاحبه الحاجة بحوبان وسط الحركـة المتصـاعـدة وخرجت ـ المدامة ـ تتمشى بين قططها وكلابها في اعجـاب وخيلاء ، ورجع ـ الحشائشي ـ من شوطه مزورا يسب هذه الوجوه المنحوسة منكبا على طبقه ليقطع شوطا اخر نشيطـا مترنما .

... الحاج الاعور ... قهوة ... وحانوت الوكيل ...

طبق بالقهوة ··· وبابا الاخضر ··· ابريق بالقهوة في الصباح والابريق في العشية وقلة شراب في السهرة ··· ليت لــي ان أسقيه بول الكلاب وسم العقارب ···

وقاطع اسحاق متحككا متفكها ···
واسحاق المسكيــن ··· قهــرة ··· ـ والحاجــة ـ اليتيــم قهوة ··· ينوب عليك ويرحم بها والديك ···

واستعود رب المقهى متبرءا من شر هذا العاق وتدخل ـ لامين ـ متشاءما من العراك في هــذا الصباح خائفـا ان ينتهي النهار بالسجن والعصا بعدما اقره الكاهية من خطية للظالم والمظلوم .

وتعنت اسحاق طالبا العراك متحككا :
··· يافتاح ··· يا رزاق ··· هات من عندك وخــذ ماعنــد النــاس ··· مــافي الــدار ومافي القطــار ··· يــارب ··· ياكريم ··· عد بالغــائب على بهيــم ··· لا فائــدة ولا راس مال ···

ووضع ـ الحشائشي ـ طبقه وهب نحوه مولولا :
··· اغرب عن وجهي ··· اعبد ربك ··· يافاسق ··· اصابك الله بالعمى والصمم والبكم ··· بالحرام اضربك ··· اعفسك وارفسك ···

وتدخل الحاجة يغير المنكر مستفزا هذا وذاك :
··· تحايشوا ··· ياحابشــوا ··· اجعلهم يتكابشــوا كبش

ينطح كبش واللي قرونو تتكسر يدخل الحبس .

نشوقهم هذه المشابكة اكثر من شؤونهم وصاح الحاجة محتجا يعيب وقوف رجلين ضد واحد مظلوم كان ارباح — المارشنوار — ردت السوقة رجالا وتدافع — اسحاق — مستنصرا يجذب — الحشائشي — ولامينا — محتقرا مشهرا .

وارتسعت حلقة المتفرجين حول اسحاق والحشائشي لا سبيل ان يكف هذا او الاخر قبل ان يدركهما صوت — بابا الاخضر — مزمجرا ان يدك في الحبس كل من يشوش راحة كاهيتها ولا يراعي شؤونها .

وتقهقر — لامين — نحو كرسي الخشب الطويل وفاجاه — نمرود — بالخبر الذي ارقه وضعضع افكاره وجزم عنترة السوق ان الشرطيين داهموا القطار بالسلاح لا يتركون محاولة وهجم لامين عابسا مشتتا كانه لا يصدق ادعاءه او يشك في خروجه مع القوافل .

وتراجع — الحشائشي — لاهثا من فرط ما انهكه — اسحاق — واستقر الحديث داعيا الى صاحبه بالسلامة من شر هؤلاء الذين سدوا ابواب الرزق في وجوه الناس بعد ان تجددت الحياة وكثرت النقود وباغته — الابرش — مستغفرا من شر ما داهم به الشرطيون قطار الليل . وخر رب المقهى لا يفقه ولا يعي داعيا الله ان ياخذ الحق من هكلاء المستبدين في كل ارض . وعزاه — سي لامين — مطمئنا ان يعيد الكرة حتى يخلف الله وجزم — نمرود — ان يتدبر حيلته لو قاوم

بالسلاح واقسم ـ الابرش ـ ان يركب سطح القطار باوعيته لا يقع في قبضتهم بعد هذه المرة .

وتوافد على المقهى رجال القوافل يردون اخبار الليل وحيل الشرطيين كان لهم نافذة على الغيب ، لا سبيل ان يخطـؤوا مواقيت المتاجرين ولا مواعيد القطار المثقـل ، ولا سبيـل ان يعرف الناس ساعات ركوبهـم او اوان هجومهـم .. ودارت الحلقات بالاحاديث والمطارحات وانتفضت بالتدبير واستنباط الخطط لتسلم البضائع المنقطعة وتزدهر التجارة المتنوعـة .

وخرج لامين الى سوسة ينفق كمية الزيت فوق حقها عند ـ درموني ـ وتدبر الحشائشي كميته لا بخال الابـرش يقـع ثانية وجلس اسحاق فوق عتبة يغني ساخرا متهكما لا طاقة له ان يفهم الهمز والغمز وقابله الحاجة ـ فوق عتبـة يـردد غناءه شامتا :

... المارشنوار ... المارشنوار ... صنعة ... حفظها التجـار ... العيـش منهـا مـرار ... المـارشنـوار ... المارشنوار ... يا بابا على المارشنوا ...

وانفجر رب المقهى يسب ويلعن ، وناصره لامين يهدد ويتوعد واستخف الحاجة يقهقه ويهاجن حتى طـار صـوت المعلم دبة يقطع كل حديث معلنا عن كميات الزيت والسكـر والدقيق وانشرحت النفوس وتهللت الوجوه وهب اهل البلد يتدبرون البنوات التي يبيعها اصحابها مارشنوار ـ مـا دام ارباب الحوانيت لا يرحمونهم بالنصيب الضئيل لـو اقامـوا مصطفين الليل والنهار كانهم يحفزونهم الى بيعها لذوي المـال

والجاه من الذين انغمسوا في خدمة القطار عن طرين غرود ـ و ـ الابرش ـ والمستقطعين في اختراق الحدود المستحيلة ٠

واضحى دوي القطار يهب بالقوافل المثقلة بمـا يهـب صوت المعلم دبة بالناس ، وتتحرك عرباته هاربة تجري بين محطة واخرى تجمع المسافرين من كل فج حتى اذا تضعضـع كانه ازاء كمائن من الالغام المبثوثة او الدواميس المجهولة ، احتضن اصحاب البضائع قفافهم محترزيـن مستعديـن ان يواجهوا باللين والقوة وما تدرعوا به من سلاح او تمائم تعمى العيون وتدفع الاذى في ساعة لا يعلم غيبها احد .

واسترسل القطار يصيبه الشرطيون مرة ويخطؤونه مرات حتى امن المتاجرون من شر الوجوه المريبة والملامح المثيـرة وضاعفوا الكميات يقتحمون بها اسواق ـ تونس ـ سالمين لاتفارقهم الخواطر بالرزق والثروة وبذل الاوقات في اللهـو والخمر والنساء مع من استقرت معاملاتهم وطابت معاشرتهم

وجمت الايام بالارباح ، تطوف بالراسخين في غدوهم ورواحهم وراء الثاقبين الثابتين في سوق المارشنوار يلفون البضاعة تحت البرانيس والقشاشب ويتسربون بيـن سـوق العصر وباب ـ سيدي عبد السلام ـ يبيعون الزيت ويشترون الافيون ابدا يعتمدون اصحاب الباع والذارع من مشاهيـر الرجال في تونس واسواقها المختلفة ٠

وغدت السهرة في مقهى الميناء ، وحانـات العاصمـة تطوف بالابرش مع رفيقه ـ نمرود ـ بعد ان امتلات الجيوب

واتسعت التجارة واستوت مجالس الشراب والمجـون بـذلا ونفقة مع ـ الغندري ـ رب الميناء و ـ الطابو ـ الماسك لزمام العذف في تونس لا يهابان شرطة ولا يخشيان سجنا ولا يرجعان عن مخاطرة .



— 7 —

احتدمت سوق ـ المارشنوار ـ واشتد اغنيـاء اليهـود يمدونه من كل بضاعة مفقودة ويقطعون منها اثر كل مـادة مطلوبة ليركب مخاطرها ابناء العرب من ـ النماردة ـ و ـ الابارشة .

واثرى ـ سي لامين ـ ثراء بـارزا في ايـام قصيـرة وتبدلت حال ـ الحشائشي ـ رخاء وسعة وازدهرت حركة السوق بيعا الشراء كان مواسم القمح والزيت فات اوانها .

وغار ـ اسحاق ـ من فقره وحرمانه وغامـر مقتحمـا طريق ـ سوسة ـ يربط صلته مع العاملين في الميناء الرابضين تحت اسوار ـ باب الغربي ـ او وراء اطلال ـ برج خديجة ـ يبيع لهم الحشيش ويشتري منهم الشاي والتبـغ والمـلابس والاحذية المسروقة من مدخرات العساكر والبواخر الزاخرة .

واصاب الناس المال بالكمشة يبذرونه في كل سبيل كان حياتهم التي كبلها الفقر والخوف ازدهت بها الايام في اقسى ظروف العيش واعسر ابواب الرزق ، حرير المظلات لباس لهم ، اسلاب ـ سوسة ـ مكاسبا تغمرهم ، احذية العسكر نعالهم ، القطار باب رزقهم ، خزائن اليهود ومخازن المرابيـن قبلـة لهم .

وطابت نفس ـ الحشائشي ـ الى معاملة كلبين لا ثالث لهمـا في علـم هـذه السوق بعدمـا مستهمـا به حركـة ـ المارشنوار ـ وتبرحت به الايام ترفع قوما وتحط اخرين ، كانها تداول مالها ان تداوله جبارة قاهرة ··· الذهب قفافا منهوبة ـ الديباج اكياسا مسروقة ··· خزائن البنوك وصناديق البريد مساوية ··· واكياس العملة التي صادفت طريق من لا عهد لهم بالعملة يتبادلونها اليوم مع اليهود ملايين ··· كل غدير انكفا يشرب ماءه ··· كل اناء استاثر يرشح بما فيه ··· قفة بالذهب افتكها شيخ ··· شكاره فلوس ابتلعها عابر في الطريق ··· الكاهية يبسبس والشيخ يحصحص ··· الوكيل يبشبش والمدامة ـ تهشهش ··· والشرطـة تعسعـس ··· ينبشون القبور وينهبون الصدور ··· يسلبون اموات الكفرة والمسلمين مترصدين كل طريق .

وملا ـ نمرود ـ مجالس المقهى تشع فيها اوراق النقـد الجميلة وتفيض فيها الخواطر المعتوهة وتختلـط الاصـوات بالقهقهة المفرطة وتمتد الا كف بالمصافحة الحارة ـ وتجـدد العهود بالايمان الغارقة وتترامى حينـا بالهمـس والتدبيـر وتستقر حينا اخر بالحديث عن ـ تونس ـ وادوار الشرطيين واشباههم وانواع المساومات والمصالحات التي يبذلها طرف لتطاطا جميع الاطراف . النقود لفائف تحشو الجيوب كانها من الورق الرخيص .

وطافت الايام سكرى تراقص اهل السوق نشاوى بمـا ساق الله من رزق واعدق ـ المارشنوار ـ من قسمة ، حتى اذا وقف الناس الليل وراء النهار صفوفا متراصة امام حوانيت

الكمية قبل ان يعرجوا بما ظفروا متاجرين مضاربين ...

وطاف ـ الحشائشي ـ يغالب الفحيح اللهيث مترنما ودمدم صوت ـ بابا الاخضر ـ ينادي الى ابريق الدريبة معربدا كان اقداح الليل لا زالت تلعب في راسه ، وقاطع المعلم ـ دبة ـ يعلن عن الكميات الواردة كان الناس لا يصطفون لها وقوفا وجلوسا من اخر الليل ، ومشى ـ اسحاق ـ متبخترا كانه من اصحاب الدفاتر على عدد الرقاب شان اهل السوق جميعا في هذه الايام المليئة بالمضاربات .

وتراجع رب المقهى بعد اشواطه الشاقة جالسا يلعن في خاطره المشائخ والمتاجرين وكل الواقفين والجالسين متبرما من نهاره وانقطاع ـ البنوات ـ فيه واحتدمت الحركة وراء الكميات التي تباع وتشترى من اصحاب الحق فيها ـ مارسنوار ـ تدفق في حينما وتسوق عبر القطار .

واستوى ـ نمرود ـ يترشف القهوة ويصفي الحسابات المتراكمة مع صاحبه ـ لامين ـ ووقف ـ الابرش ـ يعاتب تخاذل ـ الحشائشي ـ عن نصيبه في الكمية وخسرانه ليلة لا يجهز فيها من حيث يجهز الرجال ـ وجاء ـ الحاجة ـ يواجه باب المقهى فوق عتبة يغني لا يرد غناءه احد :

المارشنوار ... المارشنوار ... صنعة ... يا بابا ...
خلطها التجار ... العيش منها مرار ... يا ـ بابا ـ على المارشنوار ... ويا عيني على المارشنوار ...

وتبرم ـ الحشائشي ـ من هذا الطالع وتحامل ـ الابرش يردد صدا الكلب الرخيص لا يتماسك ان يصفعه حتى طار صوته مولولا ينادي عباد الله ان يشهدوا والتحمت قطط ـ الندامة ـ وكلابها متنابحة كأنها ازاء معركة عنيفة واتسعت الحلقة واشتد الهرج في ساعة حرجة . ووقف ـ سي لامين ينهى عن العراك مسترضيا ـ الحاجة ـ يمد اليه ورقة نقد جديدة ومد ـ الحشائشي ـ من عنده ورقة اخرى واضاف ـ نمرود ـ ورقته وقفز ـ الحاجة ـ مستخفا ينادي ـ اسحاقا ان يطير معه الى ـ سوسة ـ ويشرب على نخب ـ المارشنوار من عند اربابه . وانفجرت القهقهة وهدات الخواطر كان دموع ـ الحاجة لعاب من ريقه شوه عينيه متظلما مستنصفا .

واظلم الليل ونادت عربة القطار التي باتت مركبة مامونة تشب في الليل بالبضاعة المفقودة الى اسواق العاصمة وتقفز في النهار بالمسافرين تثقلهم القفاف المشحونة وخرج ـ نمرود ـ يسعى مع ـ الابرش ـ بعدما استقرت به المصالحة مع زبانية القطار واطاعت كل يد تستل نصيبها لا من راى ولا من سمع وتسربت البضاعة بين سوق ـ العصر ـ وباب ـ سيد عبد السلام ـ يبيعها ـ الغندري ـ و ـ الطابو ـ قبل ان تعود الخطى امنة الى حانة ـ باولو ـ في الميناء .

وضحكت الارباح جمة واستقر مجلس الشراب والحشيش وتصاعدت العربدة وتجددت المائدة وتحركت النزوات واسرف ـ الغندري ـ في انتقاء الطعام وراح ـ الطابو ـ وراء المومسات واختبلت الخواطر وتهدجت الاصوات وصال

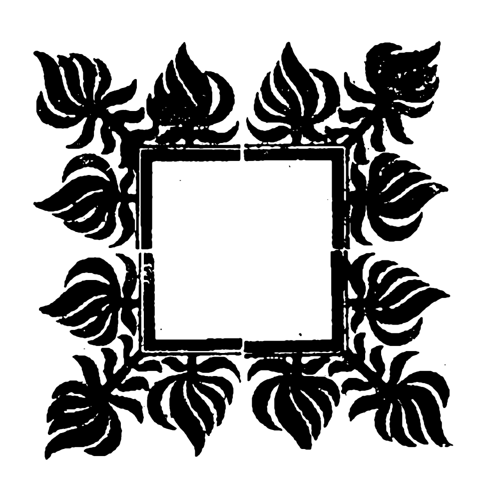
ـ الابرش ـ يقذف وجه ـ باولو ـ بالنقود وغنى ـ الطابو ـ متحرقا :

دين اليهود فرنكات ... وحب الدنيا خرافات ... واشار ـ نمرود ـ الى احد الساهرين مع غلام ناعم الوجه ونهاه ـ العندري ـ هامسا ـ انه عفريت ـ الملاسين ـ لا يلوي قناته احد من ابناء تونس قاطبة وقاطع ـ الابرش ـ مستهينا مقهقها لا يخشى عفاريت الدنيا كلها ، ورمى الرجل نظرة شزراء كانه لا يماري هذيان الغفل او لا يتحمل ريق السكارى ودفع غلامه الى المومسات مستفزا وقهقه الابرش يداعب خده مفتتنا بالقد الرشيق .

واحمرت العيون بالنظرات الحادة وتضاربت الاصوات بالكلام البذيء والردود المقذعة وهرول ـ باولو ـ يصلح ما افسد الشراب وتصاعد بالطف ودفعه عفريت ـ الملاسين ـ فوق الارض منذرا وانقض ـ الابرش ـ متحديا وطرح العفريت لا يفقه شيئا . وهاج ـ الغندري ـ كافرا مزبدا يرذل الغلام الصارخ ويصارع الرجل المتجبر كانه من عذرة الدهر ، لا يزعزعه طابور من العساكر ، ولم يلبث هائجا مصارعا حتى هوى ـ بالغندري ـ تحته يكاد ان يحطم راسه او يهشم ضلوعه ـ واحمر ـ نمرود ـ يقاوم هذا الغرير قاذفا في وجهه بالقوارير والكراسي ورد ـ العفريت ـ باقسى ما جابه ـ نمرود ـ حتى زلت ساقه وانقض عليه غارزا اصابعه في عينيه ، هاويا به الى الارض ـ ينهال على راسه ضربا قاتلا ـ وفاض الدم من عينه المفقوءة ومن انفه واذنيه ، واسترخى محتضرا يغالب الانين والرغاء وفتح ـ باولو ـ الباب مرتجفا

لا يرى اثر الساهرين عنده كان الفزع اعمى بصره ازاء جثة رجل من عفاريت الزمن ولا يعرف اكثر من وجـوه مجرمـة واسماء مبهمة .

ولاذ ـ نمرود ـ هاربا وراء ـ الابرش يتلحفان الظلام متنكرين متكتمين لا اثر لهما في رحاب ـ تـونس ـ او فـي ساحة السوق كان كل ما تحرك به القطار من بضائـع بيـن الغدو والرواح كان من اجل سكرة في حانة ـ باولو ـ وانتصار باهر على عفريت من جبابرة الوقت



8

اشتدت صلة ـ اسحاق ـ
باضحابه في سوسة يبيع لهم بضاعة منقطعة ويشتري منهم المسروقات التي يعوج بها مع صاحبه ـ الحاجة ـ على سوق البلد يساوم الناس ولا يبيعها دون ان يصيب فوق الحق حقا .

واقبلت الدنيا وانغمس ـ اسحاق ـ في دار الخالة تركية وراء سور ـ الباب الغربي ـ بعد ان جرى اسمها على كللسان بالصدق والامانة وصفاء المجلس واقبال الحرفاء من كل صوب يمدون لها اوراق النقد بالكمشة ويذرون تحت قدميها فلوس النحاس بالحفنة .

والتئمت المجالس الماجنة في دار الخالة ـ تركية ـ يحميها ـ كانتو ـ واخوه ـ الاصلع ـ من السياة والمتغطرسين ويقف لها ـ بابا عنتر ـ بما تحتاج من الشراب والطعام ابدا تنفخ في فضاءها الواسع بين ارض وسماء ربح ـ التكروري ـ وروائح الخمر واقدار اللحم من كلاب النصارى وقطط اليهود ويشع في سماءها المال الجبار الذي يفتح طريق البحر ومطار الجو ولا يمكث بالسكارى الساهرين ان يقفوا على اطلال ـ برج ـ خديجة ـ يتحدون الاشلاء المبعثرة ويطاولون حق الناس في شارع ـ البليك ـ

وتدفقت الثروة تغري بالترف والمجون لا تدع ـ اسحاقا ـ يهاب جانب ـ المدامة ـ ولاصاحبه الحاجة ـ يخشى عصا ـ الكاهية ـ بعد ان اصبح المتاجرون في بضاعة منقطعة من ذوي الجاه والمكانة .

واشرقت السوق من كل رهط وتزخرفت فيها الحياة من كل لون جابت العربات في الشوارع بانواع البضائع التي يتهالك عليها النسوة وطافت اليهوديات والاسبانيات بالملابس والقماش كان شبح الحرب ولى تاركا في نفوس الناس اثارا كثيرة وماثر مختلفة ـ واستسلم ـ الحشائشي ـ يائسا من صاحبه ـ الابرش ـ الذي انقطعت اخباره مع نمرود ـ في تونس لا يقول كلمة الا اذا طالعه ـ لامين ـ وجلس سائلا هامسا مستنفدا كل حيلة او جاءه ـ اسحاق ـ مع ـ الحاجة ـ هذا يغني والاخر يرد غناءه لا ينقطع لسبب من اسباب الاستقزاز باخبار الرجلين المنقطعين ولا يصح ان ـ نمرود ـ فتح متجرا في تونس حتى يثبت ان ـ الابرش ـ قطع البحار في تجارة ـ المارشنوار ـ وتنفجر القهقهة الساخرة التي يقابلها رب المقهى بالسب والشتائم وتخرج لها المدامة وسط حاشيتها من القطط والكلاب ويقف زوجها على عتبه الدار كانه رجع من خدمة الجيش لينتصب ضابطا على هذه السوق .

ومضى ـ اسحاق ـ مع صاحبه لا يرجعان عن ـ سوسة ـ ودار امك ـ تركية ـ المشرقة بالغيد الحسان ومجالس الشراب والطعام والحشيش ومعارف الرجال اشباه ـ كانتو ـ الماسك

زمام الدور والمجون من اعلاها الى اسفلها بما اوتى من قدرة ومكانة وما جند في هذه الخدمة من رجال وحرفاء .

ومضى ـ الحشائشي ـ مع صاحبه ـ لامين ـ لا يرجعان عن خدمة فيها الربح والاحتكار لـو وقف لهـا الشرطيـون ساعات الليل والنهار في كل طريق او استحوذ عليها ـ نمرود والابرش غدرا منقطعين الى العاصمة لا حساب ولا عقاب .

ضحكت الدنيا واشتد ـ الحشائشي ـ يطالع مجمـرة الاباريق متوكلا واقام ـ لامين ـ لا يفارق كرسـي الخشـب الطويل هامسا متدبرا شان التجارة والبضاعـة ومسـاومـة الشرطيين والقوادين حتى اذا قطع رب المقهى شوطه الاول بين الحوانيت ودوى صوت بابا الاخضر ـ مزمجرا اقبل ـ اسحاق مع ـ الحاجة ـ يحاوران ويهامسان وخرجت ـ المدامة ـ وسط حاشيتها من القطط والكلاب وتحركت السوق باهلهـا بيـن الدريبة وحوانيت المشئخ والعدول ووكيل الاحباس واختلطت الاصوات بالنداءات والاشهار وهب الصبية من الكتاب القريب والمدرسة يتدافعون ويتضاربون صاخبين عابثين وقاطع صوت المعلم ـ دبة ـ يعلن عن كمية الزيت والدقيق والسكر .

واتفق ما بين رب المقهى واصحابه في ايام قليلة لتمتد تجارتهم الى اسواق تونس بعد ما تزخرفت اخبار الذين يعودون بالنقود اكياسا يربحونها وينهبونها ويصرفهـا لهـم اليهود بالقسمة والاسهم العادلة واقسـم ـ الحشائشـي ـ متحاملا ان الراسخين في هذه الخدمة اصابوا فوق ما يشتري لهم البلد باهله من دور وغروس .

وتدفقت الاموال تغري المتاجرين بالغنى والترف وتغمر قافلة ـ الحشائشي ـ وصاحبه ـ لامين ـ فوق ما غمرت الناس في سوق البلد وبات ـ اسحاق ـ يخرج مع ـ كانتو ليلة ويخرج ـ الحاجة مع الاصلع ليلة ويرافق ـ بابا عنتر ـ كل ليلة يصون قفاف الاوعية والامتعة ويتشمم رائحة الشرطيين والمحتالين في اسواق تونس المريبة .

واصابت الخطة وانتظمت مجالس الشراب والحشيش في دار ـ امك تركية ـ ليلة ليلة تبعثر الحديث وتبرح الدنيا مخترقة الاسوار والغمام متحدية الاطلال والاشلاء المتراكمة واضحى ـ اسحاق ـ يملا كف ـ الحشائشي ـ كل يوم ويقبل راس ـ لامين ـ كل مساء حتى تفتر الشفاء وتطيب النفوس وتخيم الثقة ويلذ الحديث عن اسواق تونس الزاخرة ويقهقه ـ اسحاق ـ ان الحياة ـ سبسي ـ وكاس وزطلة مع الناس ـ ويرده ـ الحاجة ـ ماكرا انها ـ هراوة وفاس وتكسيرة راس .

واستوى حال الناس في سوقهم الصغيرة ابدا تسعى

صفوفهم امام حوانيت الكمية ويحتد صراخهم بين حوانيت المشائخ ودار ـ الكاهية ـ متنازعين في حق ـ البنوات ـ وتوزيعها واحتيال المتاجرين على اصحابها مستحوذين على كميات العيش لتصريفها في سوق ـ المارشنوار ـ وجد الشرطيون بما لهم من جهد وقوة وتصييبهم حركتهم الدائمة بالقسمة والنصيب مع من يخوضون المعامع ويركبون الاخطار .

واختال ـ الحشائشي ـ في اشواطه بين الحوانيت والدريبة لا ينقطع مترنما :

... يامريم وعلاش دلالة ... يامولاة العين الذبالة .

وجلس ـ لامين ـ متكبرا فوق كرسي الخشب الطويل تحلق في راسه الاحلام وتتراءى له الايام الزاخرة بالسب والثروة اذا اجتاز حدود السوق متاجرا في كل بضاعة منقطعة لو شاء الله ان يجف الماء من العيون وانقاب الناس عطاشى يدفعون في ثمنة فوق ما يدفعون في الزيت والسكر والدقيق .

وتعاقبت الايام واشتد حال الناس بؤسا وفاقة لا يخفف جوعهم خبز ـ البنوات ـ ودقيق الفرينة ـ وزيت ـ الكاكوية ـ ولا تنقذهم دغانم السلب والنهب ولا تجارة القطار كان ما يجنونه وبال عليهم واخفق ـ اسحاق ـ مع ـ الحاجة ـ في تجارة القطار بعد ان انقلب البخت يصيب مرة ويعكس مرات لا سبيل ان يمضي القطار دون ان يباغته الشرطيون او اشباههم يبتزون المتاع ويسلخون الجلود بالسباط حتى اذا ادركت البضاعة سوقها سالمة لا بد ان تلتهمها العيون متغامزة وتحدق بها الجبائل المنصوبة وما اكثر ما دخل الحريف من باب ليخرج من اخر شاهرا السلاح متوعدا لا يدع امام ـ اسحاق ـ او ـ الحاجة ـ غير الفرار والاستسلام لمشيئة البيع والشراء في سوق المارشنوار ـ

ادرك اهل البلا الهلاك بعدما ادركتهم به الحرب من عقوبات ومضاربات واستسلموا لحكم الزمن ينهبون ويسلبون يائسين من انفسهم متحسرين على ما فاتهم من كنوز وخزائن ابتلع سرها الحاكمون في رقاب العباد واستبد فيها النصارى الكافرون واليهود الملاعين لو شاء القدر لتركهم رمادا مضمحلا في نار الحرب التي اشعلها هتلر الجبار وعد الله ... يا وعد الله ... ياديـن الله ... امر الله نبيه ... وجاءه

النصر ... فيئة قليلة زعزعت الدنيا ... وشقت البر والبحر ... حكم الزمان ... لم يبق في الناس رجال ... رجال ولا رجال ... اشباه النساء ... ولا نساء ... ذيول الايمان المضمحلة نار تكوى جباههم ... قيود العساكر ... سياط يسلخ جلودهم ... السوق السوداء ... فتنة تقطع رقابهم رقابهم ... ودارهم ... دارهم ... خالية تكر فيها الكلاب مفزوعة يخدرها الافيون والشراب ... دارهم ... دار شرعهم ... مخفر ... فيه يحترف القاضي حكم الباطل وشهادة الزور ... فقههم ... كتاب اصفر يتبارى في اصوله الجاهلون ... كتابهم ... اباطيل من انفسهم يرتزق بها الاجون ... تراثهم ... تراث اوائلهم ... اساطير جوفاء فجر فيها الفاسقون ... ثروتهم ... ثروة ارضهم ... ماء وتراب باعه المترفون ... ابناؤهم ... ابناء من صلبهم ... صغار يتنصرون ويستهودون ... ياويحهم ... رجال ولا رجال عمه ... بكم ... صم ... لا يبصرون ولا يفقهون ... وجوههم ... مخضرة من الحشيش ... مصفرة من الخوف ... جلودهم جلود سلخها السياط وكواها العساكر ... دماؤهم ... دماء هدرها الرصاص واستحلها الجبابرة والعناترة ... يارجال ولا رجال ... ارواحهم مزهوقة اجسادها منثورة ، احياؤها منشورة تعفن الهواء وتخنق الفضاء ... يارجال ولا رجال ... اشباه النساء ... ولا نساء تغريهم سراويل ـ الكاكي ـ وحرير المظلات ... شيوخهم ... يرفلون في خز السرقات وينعمون في ترف السهرات ... يارجال ولا رجال ... اشباه النساء ولا نساء ... يحرق الروس بلادهم امام جيوش النازية لا يذرون غير النار والرماد ويفتح العرب صدورهم على الرحب والسعة يبيعون اليهم البيض والدجاج والغلال ويشترون منهم

الافيون والشاي والسكر ... ياعجبا ... ياعجبا ... يرتعون كما ترتع الكلاب الجائعة في اكوام الفواضل والاقذار ...

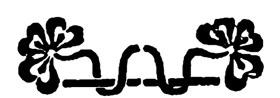
وسقط البلد تحت رحمة ـ الكمية والبنوات ـ وكابوس ـ المارشنوار ـ ابدا يشحن النفوس ويملا الخواطر ويثير الحسرة والنقمة وافلس ـ الحشائشي ـ كما خاب ـ لامين ـ لا ينتظران ان تقبل الدنيا وتتراكم الثروة في ايام قليلة لتتلاشى وتضمحل في ساعات قصيرة كان كل ما تضاربت به القوافل وعجت به عربات القطار بين الليل والنهار صبته المقادير في بالوعة لا تمتليء لو فاض البحر بالمال يغمر اعماقها .

وراجت الاخبار تعزي اليائسين بانتهاء الحرب ورجوع القوافل من ابناء العرب المسلمين الذين رابطوا مجاهدين وجاءهم النصر يوم استسلمت جيوش الالمان مختنقة لا ترى وجهة غير السقوط في قبضة الحلفاء وعصيان هتلر وما خط مستبدا على نفسه وامته .

وجلس ـ الحشائشي ـ مع صاحبه ـ لامين ـ يتهامسان بالمغانم والمكاسب التي ظفرها العساكر من اقاصي الدنيا كان قمرا اذن بالبلج لا كهذا الذي كان يضيء في حوانيت السوق وعاد ـ اسحاق ـ يتسكع اطراف النهار وآناء الليل بين ساحة المقهى ودار ـ امك صالحة ـ يقضي حاجة فافاني ـ مطاولا صاحبه الحاجة بما تغمره من اشارات مريحة ونفحات مغرية . ويندس فوق سطحه الامين كلما جاء موعده ليسرح وراء الحمامة ابدا هي تطير فوق السور العالي وتحط في

البرج الخالي لا يعكر صفو الحديث غير شخير العربان الهاربين من الجوع في خراب الاصطبلات لا ينقطعون طول الليل يحكون بالاظافر بين ظهورهم وضلوعهم وفوق صدورهم كان وباء الحرب بات يتهدد السوق بين يوم واخر .

وتزاحمت الايام تطوف ـ بالحشائشي ـ بين الدريبة والحوانيت يغالب الفحيح واللهيب مترنما :
... يامريم وعلاش دلالة ... يامولاة العين الذبالة ...
ويجلس ـ لامين ـ فوق كرسي الخشب الطويل يهامس متدبرا حتى اذا اشتد النهار وتحركت السوق جاء ـ اسحاق ـ يسعى مع ـ وحاجة ـ ووقفت ـ المدامة ـ ترعى نظرتها الشزراء وسط كلابها وقططها ودمدم صوت ـ بابا الاخضر ـ مؤذنا في الدريبة وطار صوت المعلم ـ دبة ـ بالاعلانات وقطب زوج ـ المدامة ـ فوق العتبة نافذا الى احوال الرعية كان اصوات القوالين المتسابقة وصخب المتاجرين عبر الشوارع والازقة يفسد نومه كل صباح ابداهم يتبارون ... الحلوى ياصغار ... فول سخون بالكمون ... ذواب هالفول ... ان شاء الله ... اللوبان بالشوالق ... والاباري بالشوالق ... والمساسك بالشوالق ... ياعظام للبيع ... ويادجاج للبيع ... التونسي جاء ... توا جاء ... الطفل الازرق ... الطفل الاصفر ... المحارم ... السروال ... الحصاصر ... التونسي جاء ... توا جاء ...



9

تدحرج ـ اسحاق ـ من السطح القريب متوكلا :

يارب الاعمال عليك ... وياسي الحشـائشي هـا انـا جبت ... حبيك لبيك ونهار اليوم عليك ... وامتقع رب المقهى يسب طالعه ويحمش ـ لامين ـ ان يقيله من شر هـذا الكلـب البغيض :

لا تنبس ... كانك لا تراه ولا تسمعه ... اعوذ بالله من وجهه في هذا الصباح كانه قط رماد ...

وجلس ـ اسحاق ـ يواجه باب المقهى فوق عتبـة يحك كتفيه وظهره حكا مريبا ويتمتم وحده كانه لا يرى وجها ولا يسمع صوتا وضايق ـ لامين ـ حكه المسترسل لا سبيل ان يسكت ازاء رجـل صامت لا تنقطـع اظافره تجـرد قشرتـه الكثيفة :

... يافتاح يارزاق ... ياربي الاعمال عليك ... دقيق ـ الفرينة ـ وزيت ـ الكاكوية ـ الجرب والحكاك ...

وانفجر ـ الحشائشي ـ شامتا يدعو الله ان يستفحـل داء الجرب او وباء الكلب ليخف الازدحام وتصفو الايام لو اكل الناس الحشيش والتبن من حيث تعلف الدواب .

وتمتم ـ اسحاق ـ مستغفرا لا يسال احدا ولا يجيـب

سائلا :

... يارب ... ياعظيم ... العمى والبكـم للرجـل المنافق والحبس والمشنقة للرجل المداهن .

وبصق رب المقهى متحاملا مهددا باسم ـ بابا الاخضر ـ ان يمحو دابر السطوح والفرانيق والاصطبلات التي تعشش فيها القمال والبراغيث وقهقه ـ لامين ـ مستطيبا هذه الفاتحة الحادة وقاطع ـ الحاجة ـ يواجه باب المقهى فوق عتبة يتحكك ويجرد باظافره الكثيفة ...

... لم يغمض النوم جفني ... بالحرام مانمت البارحة
كان جلدي مطلي بالفلفل الاحمر وقهقه ـ الحشائشي ـ شامتا مستعذبا :

... الوباء القشاش ... اختار الكلب واخوه ... راحة الكريم ...

وانتفض ـ الحاجة ـ متحاملا ويجيب مهاجنا لا تنقطع اظافره الكثيفة تجرد جلده :

... دودة الفساد تنهي عن المنكر ... الوباء والقشاش
... يايهودي ... يامهراس يارعية الكلاب والقطاطس ...

وامعن ـ الحشائشي ـ باصقا يرد الشتائم متوعـدا : الناس تعـرف ... ياوبش ... ياسـارق ... ياقـواد ... ياقفاف ... وتحامل اسحاق مهاجنا لا ينقطع يجـرد فـوق بشرته : يامحراك جهنم ... ياكلب السوق ... انا سيدك ... انا سيدك والحاجة سيدك ... اسكت ... اسكت ... خير

من ان افضحك وسط السوق ... ياشيبة جهنم ... يازير ...
الناس تعرف ... ياوبش ... ياسارق ... ياقواد المدامة ...

وقاطع ـ رب المقهى ـ مناديا ـ بابا الاخضر ـ مستنجد
يامخفية ... بالحرام لو ضربتك لا قعدتك .
أهل الحوانيت في هذا الصباح وقهقه ـ لامين ـ مستعذبا
هذه المناورة الطريفة وخرجت ـ المدامة ـ تحك فوق زنديها
الورمتين مقطبة تكاد ان تبصق في وجوه الواقفين والجالسين
ووقف زوجها متحككا يملا كتفيها عابسا يكاد ان يضرم النار
في الاصطبلات وعبادها الذين يرعى في الذين يرعى في
اجسادهم البق والقمل .

وتقزز ـ اسحاق ـ من جلدتها المرتخية تزداد ورما كلما
استسلمت تجردها باظافرها الحادة وارتبك ازاء نظرتها
الشزراء وعينها المحمرة لا تدع له ان يجلس ويهاجم رب المقهى
المتحامل على ـ الحاجة ـ كانه يضمر له كراهية لا يعرف
سببها بعد ان جمعت ـ خدمة ـ المارشنوار ـ بين القلوب .

وقاطع البدوي النائف يواجه المقهى متشمسا لا سبيل ان
يتركه ـ الحشائشي ـ زاجرا باصقا ليرده الى اصطبل المعلم
ـ دبة ـ قبل ان ياكل راسه في بحر ـ الزبلة ـ وتعنت
ـ الحاجة ـ يغير المنكر والاستبداد على حق العباد في شارع
ـ البليك ـ وانفجر ـ الحشائشي ـ متبرئا يسب له امه متضايقا
من التهاب قشرته كان الحكاك سرى اليه . وتضاحك ـ لامين ـ
يقول ان نوار الربيع بدات براعيمه تتفتح في جلود المدمنين

على دقيق ـ الفرينة ـ وزيت الكاكوية ... يافتاح ويارزاق ... ياربي الاعمال عليك ... الجرب والحكاك ...

وبسط ـ الحشائشي ـ كفه للطبق وانصرف في شوط اخر لا ينقطع يحك فوق صدره باليد او الاخرى كلما اعياه الالتهاب الحاد وعاد لا يتماسك ان يحك فوق كتفيه وبين ضلوعه كان لحمه مطلي بالفلفل الاحمر ولم يقطع شوطا جديدا حتى وضع الطبق واستسلم حاكا جاردا انا طويلا قبل ان يعود الى حرفاءه مترنما :

... بابا علي قهوة ... بابا صادق قهوة ... والفرطاس ... والكلب الاعمى بول عليه ... يامريم وعلاش دلالة ... بابا الاخضر ... ابريق قهوة ... والمدامة ... الوباء واسحاق ... الموت وقطع الصوت ... الحاجة ... الجرب والكلب ... سي لامين ... العمى والبكم ... سيدي الكاهية ... القلع والزلع ... يارب الاعمال عليك ... قهوة ... ياكريم ... قهوة ...

وتردد ـ الحشائشي ـ يقطع اشواطه متحككا جاردا وعاد ـ لامين ـ يحك ويجرد فوق صدره وبين ضلوعه ولا يتماسك ان يقف مستعينا على التهاب ظهره بالجدار او الباب ودمدم صوت ـ بابا الاخضر ـ يطلب ابريق لا يكترث لعدوى الحكاك المستفحلة في السوق وطال صوت المعلم ـ دبة ـ ينادي الناس الى نصيبهم من الكميات الواردة على الحوانيت وتحركت السوق باهلها في ساعتها المعهودة كان داء الجرب اخف ما يصيبهم به الدهر في ايام الشدة والقحط .

وتفشت العدوى تجتاح البلد حتى اشفق الناس من الحكاك وتضاربت التاويل واختلفت الاقاويل ازاء دقيق - الفرينة - وزيت - الكاكوية - واندفع الرجال يقتحمون الاقاصي وراء القمح وانواع الدقيق والشعير والحنطة يشترونها من - المعمرين - في - باجة وماطر - والربع والمجاز - ويبيعونها في اسواق البلد غانمين ظافرين .

وتهاطلت القوافل بالابل والعربات في طريق بر - افريقيا - ابدا تعود مثقلة كان الناس اصابوا في زرعهم موسما غنيا وتصدى الشرطيون واشباههم يبتزون المتاع ويساخون الجلود . وتحالف الرجال في غدوهم ورواحهم وراء الابل والعربات يركبون الليل بين الجبال والاوعار ويتدرعون بالسلاح . وتصابى - الحشائشي - يهزه الشوق الى فتوته ليركب الاخطار متغطرسا ويواقع الشرطيين والمستقطعين . وهب - لامين - يدفع الشركاء الى خدمة العربة التي باتت باب رزق واسع لا يدع حياد في هذه السوق لغير - اسحاق - والحاجة - كلبان لا ثالث لهما هذا يبيع القرد والاخر يضحك من شاريه ...

وامتدت ايدي المشائخ والمقربين تغرف من هنا وتصب هناك وتدفع ابطال الرجال وراء القمح والشعير وتنفس اهل البلد لا يداوي جربهم - الكبريت - والسباتيرة كما تداويها تجارة الحبوب الرابحة وتجددت حركة البيع والشراء وتحركت العزائم بالمكاسب والمغانم وتزاحمت الاحلام بالرزق والنصيب .

ومد - درموني - واشباهه من اليهود ايديهم وتراخت

الشدة وفتر الجرب وتنفس ـ الحشائشي ـ يقطع الاشواط كل صباح مترنما وجلس ـ لامين ـ ياخذ منه قبل ان يرد اليـه اخبار القوافل ومدى المرابيح التي يجنيها ارباب العربـات .

وعاد صوت ـ بابا الاخضر ـ يدمدم اذننا بالطبق وعادت ـ المدامة ـ تجيل نظراتها الشزراء وانفجرت اصوات القوالين تسابق النهار متجاوبة ابدا هو ـ بابا علي ـ يغني وبوصنانه يرد غناءه قبل ان تقتحم قافلتهم جميعا فـي بطحاء السـوق تاركين الشوارع والازقة لاصوات اخرى تنادي الى الحلوى والاباري والمساسك واللوبان ابدا هي بين صبـاح ومسـاء صاخبة دتجاوبة اعرقها صـوت ـ درابة ـ الـذي خـربش ـ الجدري ـ فوق وجهة واعشى بصره وافنت السنون جهده واقام صامدا يتحدى الجوع والعرا ويطاول كل داء او وباء ، همه ان يبيع ويشتري بين الازقة والشوارع لا يقف عند بضاعة ولا يرد صدقة ابدا هو ـ درابة ـ الذي يعيش فقيرا محتاجا شحاتا لحوحا حتى بات صوته مدفونا في قلوب الناس كانهم لا يسمعونه لو اقام الليل وراء النهار ينادي شاهـرا ويـردد صارخا .

وتبختر ـ اسحاق ـ في خطواته كانه يقيس الشارع طولا وعرضا ووقف ـ الحاجة ـ يزدريه مترنما كان عيونه تراقص النهار من فرط ما تنفس من ـ السباسي في ليل قاتم طويل فوق سطح موحش غريب .

واتفق الحديث امام المقهى وطاب ـ الحشائشي ـ بعد اشواط النصيب وامتلا الفراغ باللعب والضحك واستهتر رب المقهى يسب باصقا متنكها ـ لامينا ـ الماكر المتافف كانـه لا

يدله في قمح او زيت ومضى يهاجـن ـ الحاجـة ـ المتمـرد ويبصق في وجه ـ اسحاق ـ المتماوت كانه كلب هزيل .

وقاطع صوت المعلم ـ دبة ـ يمزق في ارجـاء السـوق حتى استوى الناس وقوفا مرتبكين كان خطرا داهم امنهم في هذه الساعة وتنحنح المعلم ـ دبة ـ ينـادي اهل البلـد الـى الوقياة من الحمى الضاريـة في افـاق البـلاد . واستغفـر ـ الحشـائشي ـ مستعـوذا ودعا ـ اسحـاق ـ ان تفتـك بالفاسقين في السوق وقهقه ـ الحاجة ـ يدعو ربه ان تقبض دودة الفساد وتريح العباد . واحمرت الوجوه والتقت العيون بالنظرات الحائرة كان اثر الجرب لا يزيله عنهم غيـر وبـاء الحمى الفتاك واضطرب ـ لامين ـ خائفا ان تسرى العدوى باكثر ما سرت افة الحكاك ساعة وقف ـ اسحاق ـ جـاردا مبالغا وتضاحك ـ الحاجة ـ شامتا يسـال الله ان تنتشـر المقابر في كل ارض ويدفن ـ اسحاق ـ اعداءه متنقما متشفيا

وعصفت الحمى باهل البلد لا يردها عنهم طبيب او دواء حتى كادت النعوش والجنائز لا تجد من يقف فـي مواكبهـا وخلت السوق لا يجوب فيها غيـر ـ الحشائشـي ـ يائسـا مستسلما مرة يرد كلام ـ الحاجة ـ المستهتر ومرة يبصق في وجه ـ اسحاق ـ المتماوت .

وردت ـ المدامة ـ بابها مفزوعة كان زوجها بات فـي قبضة عزرائيل لا ينفعه طبيب او دواء وهجر ـ لامين ـ مقعده فوق كرسي الخشب هاربا من شر ما تطالع به المقادير عبـاد الله المساكين . واقفرت السوق كانها في ايام الحرب لا يرومها

غير البدو المحتضرين من الجوع والمرض في الاصطبلات العفنة .

واختنقت الحياة في ايام قصيرة كانها تحتضر في صدور اهلها وجلس ـ اسحاق ـ مستهترا يشرب القهوة من ابريق ربها متحديا ونهاه ـ الحاجة ـ عن الجبروت والاستفزاز وتماسك ـ الحشائشي ـ لا يرغب في العراك رازحا في الوساوس والمخاوف التي لا تدع ان يدمدم .

ـ بابا الاخضر ـ او تنظر ـ المدامة ـ نظرتها المشحونة .
وقاطعت العجوز مستغيثة تدعو الى زوجها المحتضر وقفز ـ الحاجة ـ داخلا وراءه ـ اسحاق ـ مضطربا كانه يواجه الموت اول مرة في حياته وجرى ـ الحشائشي ـ يغالب لهيئة المتقطع يكاد ان يبرح مرتجفا ازاء سرير الرجل المحتضر :

... ان لله وان اليه راجعون ... اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وجلس ـ الحاجة ـ ينهى المتشهد مشيرا ان الرجل كافر لا يعرف ربا ولا نبيا واعتذر ـ الحشائشي ـ مستغفرا انه يقاوم الخوف والارتباك وقاطعم المحتضر بالغمغمة والهذيان لا يفهم بعض اطرافه غير ـ الحاجة ـ الصامد لا ينتاب صاحبيه وتقطع الصوت مختنقا كانه يستغيث من شر ما يتراءى له في غيبوبته .

... ما دام ... فوهة نار ... نار ... نار
وامتقع ـ الحشائشي ـ من هذه الصورة المخيفة كانه ازاء نار جهنم وفتح زوج ـ المدامة ـ فمه كانه فوهة دامسة تبتلع

الوجود واستسلم لا يتحرك ولا يتنفس واجهشت العجوز باكية شاهقة متحرقة لا اهل لها ولا اقربـاء يحملـون معهـا عبء مصابها وبئس مصيرها .

واشاح ـ الحشائشي ـ وجها مصفرا يسب من ساقه في ساعة منحوسة ليقف مختنقا ازاء سريـر رجل كافـر يلفـظ انفاسه كانه اصبح قميص او ـ ربي ـ لا يجوز الموت الا بين يديه ولا تسفر الارواح الا محفوفة بما يقرا لها من التراتيـل والتسابيح .

وجاء من اهل السوق من تهمهم الوفاة والتعزية والمواساة وتقهقر رب المقهى مستعـوذا مستغفـرا نحو بابـه ومشـى ـ اسحاق ـ متهيبا العجوز الشاهقة في امر ساعة وجلـس ـ الحاجة ـ فوق عتبة يواجه باب المقهى ويقذف خواطـره : قل شاء ربك ان يكون اجرك عندها عظيم ... قل لمن تشهد الكافر بغيض ... قبرك بين النصارى والكافرين ...

وانفجر ـ الحشائشي ـ باصقا متبرءا من شره : وانـت قوادهـا الاميـن . يافاسق ... تزوجهـا وعليـك الامان ...

واستعوذ ـ اسحاق ـ مستغفرا :
... بئس ما يمر بنا من ايام ... رجال ... نساء ... بنون ... بنات ... موت ... موت ... حتى زوج ـ المدامة ـ لا ينفذه طبيب ولا ينفعه دواء ...
ووقف رب المقهى مستعوذا :

... القمح ... الزيت بعد ـ الفرينة والككوية والحمى بعد الجرب والحكاك ... ياحفيظ ياحفيظ ...

وانفجر ـ اسحاق ـ متضايقا :

... يئس المكاسب ... ذهبا ومالا ... لا تساوي ان يعيش العباد سالمين أمنين من كل داء او وباء ...

وتهكم ـ الحاجة ـ متهجما :

... ويذكرون ربهم اذا دمدم الرعد فوق رؤوسهم وحدق الدمار يتهددهم ... سبحان من علمهم ...

وبصق ـ الحشائشي ـ متحاملا يسب الدنيا وادوارها :

... كان الايام تشب في السوق باشد من الجرب والحمى وامر من الحرب والقتل

وضغط ـ الحاجة ـ لسانه مجيبا :

... دون الفساد لا تقتله حمى ولاجرب ... ولا تفنيه حرب ... احابيله المنصوبة ادهى من الداء والوباء وامر من البؤس والخصاصة ... حتى اذا انقطع الدرد عاش الناس يرزحون في احابيله المنصوبة ... ودودة السوق نعرفها ...

وانفجر ـ الحشائشي ـ مولولا :

... اعبد ربك ... اصابك الله بالحمى والجرب ... يافاسد

فك يدك من خناقي كانك لا تعرف غيري في هذه الدنيا ...

وقهقه ـ الحاجة ـ متفكها لا يرجع :

يايهودي ... ياجويف ... وياقواد ... سبقك زوج

ـ المدامة ـ ليحجز لك قبرا فخما في جبانه النصارى . قبـر لك وقبر لصاحبك الهارب خوفا من الموت ... بالحرام تموت وندفنك في جبانة اليهود ... ياكلب ...

وانفجر ـ اسحاق ـ مقهقها مستملحا :

... ويكون صاحبك في الدنيا خير صاحب لك في الاخرة ... ووقف ـ الحاجة ـ متقهقرا ويكون محراك جهنم من النصارى واليهود غلافهم فيها قشور العرب والمسلمين .



10

استسلم الحشاءشي توسوس في صدره المخاوف من طاعون الحمى المنتشرة في البلد بعد ان كاد يقبض روح صاحبه لامين دون ان يصيب الحاجة او يباغت اسحاقا الساخر من كل داء ودواء لا سبيل ان يمضي النهار دون ان يشب بالعراك والصراخ ولا تطول ساعة في الحديث دون ان يقاطع عابثا مستخفا كان هذيان زوج المدامة لا يفارق خواطره

فوهة سوداء ... نار ... نار ... تاكل الجالسين والواقفين ... نار جحيم ... تلتهم المتحدثين والسامعين ... نار ... نار محراكها رجل في السوق مسمار ... في التكروري سمسار ... نار ... نار ... ياعباد الله ... نار ... دودة فساد ... مسمار ياعباد ... مسمار ...

ويجاوب - الحاجة - منتشيا يرمي كلامه متخابلا كانه سكران : والله نار ... كانها فوهة راها زوج المدامة ساعة نزاعه ... نار من الدرك الاسفل بشر بها الرجل المسمار ... نار الدمار تاكل جاش صاحب في السوق اسمه عار ... ياعباد ... اسمه عار ...

ويتحامل رب المقهى باصقا مشاءما وتقف - المدامة -

عابسة حزينة حتى اذا دمدم صوت بابا الاخضر اذنا في ابريق الدريبة تسئل اسحاق متبرءا وتحركت الخطـوات في طـريق السوق متثاقلة تسابق اصوات الفوالين والباعة المتجوليـن يتجاوبون بالنداء الى الفول بالكمون والحلوى للصغـار او اللوبان والاباري والمساسك بالشوالق .

وتفاقم وباء الحمى لا ينقذ اهل البلد من داءه الفتـاك قمح او شعير ولا قناطير الذهب واطنان النقود مادام المصاب يقضي نحبه في ايام قلائل بعد ان تجتاح مفاصله ويشتد بـه الاسهال والقيء ويلازمه العرق والعطش وتنتابـه الرعشـة والغيبوبة حتى يسقط وتقف به الساعة لا ينفعه ماء الزهر او تمائم الكتابين والنذر لاولياء الله بالاكباش والثيران .

ومكث ـ الحشائشي ـ يطالع النهار مستغفرا لا يـرى حانوتا مغلقا دون ان يوحد ربه مستجيرا كان غزرائيل اجتاز الى اهل السوق لا يقيل احدا لو انه صادف اسحاق او الحاجة واراح تراب الارض البريئة من وطء الاقدام النجسة .

ومكث اسحاق يسابق الحاجة كلما استوى له ان يواجه باب المقهى فوق عتبة لا يرد سؤالا ولا يطلب جوابا ... يعجبكم ها المسمار ... في السوق عمل العار ... باع عمـره فـي التكروري والقمار ... ويقف الحاجة كلما ان لـه ان يقـف مصفقا مسرفا :

... السرمية اكلها المارشنوار ... والبقية ... جرب وحكاك وحمو فتاك ... فيـن فلوسـك ياحمـار ... في الصفيحـة والمسمار .

وتوالت الايام تصيب اهل البلد بالشدائد لا ينفعهم دواء الطبيب ولا يشفيهم ماء الزهر او اوراق العنب ولا توسيد حجر القبور تحت راس المريض في الليل ودفنها قبل البزوغ كان ساعة القضاء وقفت ازاء من جاءه الاجل لا يردهـا دواء او علاج .

ودب ـ لامين ـ متعافيا في طريق السوق بعد ان يئس من نفسه لا يخال مرضه يقيله وانس الحشائشي ان يجلس صاحبه فوق كرسي الخشب الطويل يعيد اليه امل الحياة ويخـامره بالكسب واسباب الرزق .

ووقف رب المقهى يسابق النهار متوكلا وجلس لامين ذاهلا لاهثا يستغفر ربه من شر الحمى التي لا يدفع طاعونها الجبار مال ولا بنون وتضاحك الحشائشي يجيب ان الله يسوق قضاءه قدر طاقة عبده سبحانه ما اعظم شانه واستوى لامين نشيطا منشرحا وجد صاحبه في اضرام النار واعداد الاباريق وقاطع الصراخ والعويل كانها الحمى قبضت انفاس غني من اغنياء البلد في هذا الفجر الناعم وتشاءم الحشائش مستغفرا وارتبك لامين متضايقا من حرارة البكاء والنحيب .

ومزقت عربة الشرطيين من سوسة في طريق السـوق وخرج الكاهية وراء بابا الاخضر كان كارثة تهدد نهار البلد وتقهقر الحشائشي مرتبكا واصفر لامين خائفا ، انقطع الصراخ والنحيب حينا وترددت السيارة بين حين واخر حتى استوى الكاهية في دريبته ودمدم صوت بابا الاخضر مزمجرا وتسابق المشائخ مفزوعين وخيم الرعب في هذا الصباح الباكر وتضاربت

الشكوك وسقطت السوق عابسة خرساء كـان العويل الـف المسامع خلال هذه الايام المريرة بالداء والوباء .

وتدحرج اسحاق من السطح يفرك عينيه الثقيلتين ووقفت المدامة وسط حاشيتها من القطط والكلاب وتحـركت السـوق بالهمس وامتلات النظرات بالحيرة وذاع الخبر عن مصـرع الحاج حسن السحار في عقر داره حين سطا عليها المستقطعون في السلب والنهب وخرج اليهم بالرفش ضاربا لا يهاب بطشهم حتى فتكوا به ونهبوا داره .

وسرى الحديث على افواه النـاس يشيـدون بالرجـل الشجاع المن بذل في صراعه ويترحمون على سلوكه ومعاملته نافذين الى اصحاب هذه الواقعة متذاكرين في اسماء كثيرة كان كل ما يصيب اهل البلد في الليل او في النهار لا يفـوت اناسا معروفين طارت شهرتهم بين القرى والبوادي وادركت المدن خلال الحرب .

وبث الكاهية خدمه وراء المستقطعين وذوي الشبهـات يتجسسهم قبل ان يبعث بهم الى دار الشرطة ليساقوا الى دار المراقب في سوسة ـ وتسلخ جلودهم في قيـود السلاسـل . ووقف الحشائشي في دار الكاهية ساعة لا يسلم من الصفع والركل كانه حارس البلد لا يفوته ان يسمع او ان يرى اثـر المستقطعين وفر اسحاق من حومة السوق لا يروم سوءالا ولا يعي جوابا اذا كان الكاهية اضمر له في هذه الواقعة وطـاف الحاجة بريئا من كل ذنب لاعلم له الا بما علم الناس .

خيم المساء وهدات الحركة وطار صوت المعلم دبة من بطحاء السوق ينادي اهل البلد الى استقبل ابناءهم الابطال الذين رابطوا مجاهدين في جبهات القتال وجاءهم النصر وتهللت الوجوه وانشرحت الصدور وافترت الشفاه . وتحركت الاحلام وسبح الحشائشي وراء صاحبه لامين يزين له الايام بالقسمة والنصيب والحرفاء المبذرين في القهوة والميسر بعد ان غمرتهم الحرب بالمغانم والمكاسب رخصهم الفرنسيس بالمنح والمرتبات وحلق اسحاق مع الحاجة في عالم خصب طامعين ان تمس الحياة جانبا او اخر من وجود مضمحل فوق سطح

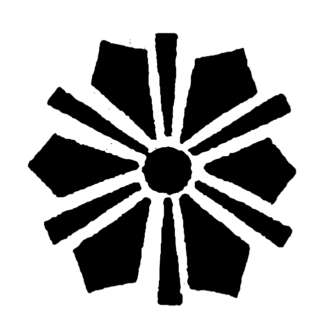
تائه ... وخامر الامل ـ امك صالحة ـ ان سوق زواج حامية لبناتها وطمحت فافاني ـ ان تختار زوجها الكفء من العساكر المفلحين . وتمتع الغيب أهل السوق جميعا طامعين ان تخصب التجارة وتغدق الارباح الطائلة بعد ادوار ـ المارشنوار ـ وما اكتسح الحاكمون وابتز الشرطيون في ايام قليلة من رزق ومتاع .

وبرح الشوق بالاباء والامهات كان فرصة العمر اشرق بها مساء عابس حزين من صوت المعلم دبة الذي لم يعرف الناس انحس منه وتزاحمت الخواطر وتصاعدت الامال المعطرة تبني الاحلام اللذيذة وتقيم الافراح الصاخبة . كان الساعة العذبة ان لها ان تدفع بؤس الحياة وقسوة العيش واحتفل اهل البلد يستقبلون ابطالهم المظفرين بالطبول والمزامير تحفها الفرسان وتزينها الرايات ووقف الكاهية وسط المشائخ والعشرة الكبار ترعاهم المدامة بالعين الراضية

ويغمرهم المتقربون بالاكبار والاجلال . وازدهت السوق بالقوافل الراجعة من الاقاصي البعيدة تفيض من عيونهم دموع الفرح والنجاة وتحز في نفوسهم كآبة اهلهم وذويهم .

وتحرك البلد ونشطت الحياة وهب الحشائشي في طريق السوق يسعى قبل الفجر مستبشرا أن تجتاز تجارته الحوانيت والدريبة وتسرب سي لامين وسط العساكر الراجعين يباشر وظائفه ويبث أدواره وتردد اسحاق نشيطا على معارفه يغمرونه بالسراويل والاحذية وانقطع الحاجة وراء اصحابه المفلحين في خدمة الجيش يبذرون المال في المجالس والسهرات

وبدا الهمس واصطدمت المصالح وجد عمار الارقط لا يروم خدمة الفلاحة ولا يحسن صنعة اليدين ولا ترضيه لقمة العيش التي تمتهن اهل البلد وتطاول مرجان الاخرش – يسب هذه الحياة اذا كان قضى ما قضى في خدمة العسكر ليرجع اجيرا معذبا وطمحت النفوس بما قدمت ايديها في جبهات الحرب لاشان للمشائخ او الكاهية والحواشي قبل شان عمار ومرجان واشباهم .



11

ملاء اسم ـ عمار الارقط ـ ارجاء السوق لا يفوت يوم من ايامها دون ان يجلس بين اصحابه مشرق الوجه تفتر شفاهه عن طاقم من اسنان الذهب وتبوح ملامحه بالمغانم والرزق لا يهاب ـ بابا الاخضر ـ وكاهيته ولا عين ـ المدامة ـ ومن يمد لها سلطانها على عرش السوق ومكث ـ مرجان الاخرش ـ يطاول كل مستبد لا ترد له كلمة ولا يعصى له امر وتقرب ـ اسحاق ـ من مجالس العساكر المترفين المبذرين وانغمس ـ الحاجة ـ لا يفارق لياليهم الساهرة ونزواتهم الماجنة كانه عاد معهم من جبهات القتال النائية .

وحل ـ نمرود ـ مع صاحبه ـ الابرش ـ كانهما يعودان حقا من الاسفار وقطع البحار وراء اسواق ـ المارشنوار ـ بعد ان تحطم راس عفريت ـ الملاسين ـ فوق الرخام في حانة ـ باولو ـ ووقف لهما ـ الغندري ـ و ـ الطابو ـ يخفيانهما في مغاور ـ تونس ـ لا سبيل ان تدركهما يد الشرطيين او ردود المنتقمين ولا خوف او حساب ينتظره ـ الحشائشي ـ او ـ لامين ـ بعد ان افلست التجارة عند الناس جميعا .

وضحكت الايام وازدهرت مجالس اللهو والمجون تزدان موائدها بالتمر والحلوى الشامية والبيض والفواكه ، وتنتصب

فوقها اعراف الشجر واغصان الزيتون وازهار القرنفل والورد والفـل والياسميـن وتحفهـا اقفـاص العصافيـر وتردهـا السباسي ـ جنينة غناء يتنعم في ظلالها الوارفة من تنفس ملء صدره من حشيش ـ التكروري ـ حتى اذا اشتد بريق عينيه ووقصت الدنيا امامه راح يعير ـ مزطولا ـ بين الظلال الوارفة ويحلق طائرا مع العصافير المرفة في اقفاصها .

واستهتر ابناء السوق باعا وذراعا لا يتحدى بطشهـم شيخ او كاهية ولا يعيب سلوكهم اعيان البلـد او سفهـاؤه وانقطع ـ الحاجة ـ الى موائد الطعام الفاخرة لا يشوق لذيذ شهواها الا من تعلم ان يقضم التمرة قطعـا ويزق الحلـوى والبيض فتاتا وبات ـ اسحاق ـ يتدبر امر الحشيش والشراب ويغري الفتينة والغلمان بالسهرات ومجالس الانس التـي لا تضاهيها ليالي ـ الكاهية ـ مع المشائخ والمقربين من العشرة الكبار والشرطيين والقوادين .

ومدت امواج الحديث عن العساكر والمغانـم وفـاضت الخواطر عن النفقة والبذل وضاقت ـ فافاني ـ لا تصيب زوجا كفئا تركب رقبته في طريق حياتها واطلت على السوق طويلا يائسـة من وجـه ـ اسحـاق ـ الرخيص باغضـة كبريـاء ـ الحاجة ـ الخاوية واختارت خائفة مضطربة بين ـ نمرود ـ المتمرد كانه قتال ارواح وبين ـ الابرش ـ الشاحب كنه سلال القلوب و ـ مرجان ـ البدين كان جسده مزود بالدقيق وراحت تحلم ان يكون عمارا نصيبهـا ... رجل وسيـم طويـل ... نحيف ... نظرته هادئـة مريحة ... ضحـوك لعـوب ... طروب ... طليق ... كانت تراه من حيث كانت تراهم جميعا

... يامرهم وينهاهم ... يسبهم ويبصق في وجوههم .

واشتدت انوثة ـ فافاني ـ لا تطيق وحدتها التي احست ان ـ عمارا ـ وحده لا سواه يملا فراغها ـ وغامرت متبرجة متصدية كلما كان لها ان ضخرج وراء شؤون الحمام الا غيرها ولم يكن لها شان اخر غير اثارة واحس ـ اسحاق ـ ان ازمة الانوثة تجتاح الصبية وشك ـ الحاجة ـ انها تريده دون ان يساوي هذا او ذاك نظرة من عينها .

وهاجت ـ فافاني ـ لا تجد قوة تدرك بها قلـب عمـار فحطمت قيد الدار لا تقبل نصيحة ولا تسمع كلمة . وتجبرت لا تطيع امها التي تجوب بالقماش والذهب بين الدور . وتعللت بالخياطة والغرزة تجوب وراء امها معلمة لبنات الاغنياء ولم تكن تمر دون ان ترى عمارا كانه القمر الساطع يشع بين الناس في الليلة الظلماء .

واحس ـ الحشائشي ـ ان السوق تغزوها البنات وغمزه ـ لامين ـ ان جلود ـ المدامة ـ المرتخية لا تـروق العسـاكر النهمين وطفت التعـاليق ان البنـت شاقيـة معذبـة ونهـى ـ اسحاق ـ عن خدش كرامتها وتحامل ـ الحاجة ـ لا يطيق الطعن في عرض البنات الشريفات .

وراها ـ عمار ـ حين راها وراء خمار الصوف الاسود تتهادى كانها عروس من الاحلام وفتنته نعومة معاصمها وراء النقاب وبياض زنديها تحت اللحاف وتحركت عاطفته واشتعلت ناره واقام يترصدها ويزن خطواتها كانها تمشى فوق صدره

لتخيط قلبه وتغرز كبده .

واحست ـ فافاني ـ انها اصابت رميتها فامسكت عن الخروج لا تنفك تقف امام المراة تمشط خصلات شعرها وتهدلها سوادا فاحما فوق كتفيها وزنديها وتعقصها ظفائر رشيقة تتدلى فوق ظهرها جذابة مغرية .

وارتبك ـ عمار ـ لا يروم صبرا كان خطواتها كانت تريحه واشفق ان تجتازه اولا ترتضيه وهم ان يرتمي اليها مستعطفا ، ويخاطب امها التي تضايق حركتها وتراقب خطواتها ابدا تعيب وفوقها امام المراة وتبرحها كان خروجها معلمة لبنات الاغنياء علمها ان تتزين وان تتبرج فوق صنعة النساء . وتردد ـ عمار ـ يكاد ان يدفع بابها راجيا متوسلا لتخرج وتجرب متهادية في خمار الصوف الاسود تفتنه معاصمها وتهيجه زنودها الناعمة .

وهبت ـ فافاني ـ في طريق السوق كانها النجم المتالق ورسخ ـ عمار ـ يقتني خطواتها وعطفها حين وقفت متعمدة تسوى لحافها وتشد نقابه الرقيق فوق وجهها كانها تنتظرهليرى ملامحها الساحرة ووقف ـ عمار ـ ضائعا مرتبكا ورشقته ـ فافاني ـ ناهية معاتبة وافتر وجهه يشع فيه الامل والحنين ولم يتمالك ان التهمها مفاتحا :

... ياحلاوة عينك ... يامولاة الخمار الاسود ...

وقاطعت متجاهلة ...

... ارجع من ورائي ... الحب قو ي عليك ...

واحتد عمار كانها تهينه :

... لست كفئا ؟ ...

ومزجت ـ فافاني ـ كلامها بالابتسام :

.. غالي عليك ... ياولد الناس ...

ودنا ـ عمار ـ كان صوتها نغم حائر يصيب اذنا مرهفة .
واسدلت ـ فافاني ـ النقاب على وجهها ا ـكفـأت لا تلتفت
ومشى ـ عمار ـ وراءها لا تجيبه كانها اعتزمت ان تلازم قيد
الدار . وتراجع نادما ان اغتر لها حتى عرفت طويته وانصرفت
لا تعبا به .

احست ـ فافاني ـ أنها انتصرت واحس ـ عمار ـ ان ناره
اتقدت . وهاجت كلما شقت في طريق السوق تتهادى في كبرياء
لا يهزها الهمس والغمر كانها تنفخ نارا في بركان من اختارت
ان يصطليه حبها واحست امها وقست معنفة مهددة لا تتحمل
ان يحوم حول بيتها القيل والقال وتعنتت الحسناء لا تطيق
رقيبا ولا ترجع عن مواعيدها الى بيوت الاغنياء تعلم بناتهم
الخياطة والغرزة .

واستسلم ـ عمار لا يخطيء طريقها مولعا شغوفا ملحا
واطاعت تلاقيه وتبادله كلمات الحب لا يقطعها عنهما صوت
ـ الحشائشي ـ باصقا متنحنحا ولا عين صاحيه ـ لامين ـ
قابعا متلصصا ، ولا نبيع ـ اسحاق ـ كانه الكلب الجائع ولا
كرير ـ الحاجة كان داء الكلب اصابه باكثر ما اصاب اهل
السوق جميعا .

وايقن رب ـ المقهى ان امر ـ فافاني ـ مع ـ عمار ـ

بات مقضيا لا طبول ولا مزامير ولا مزامير ولا حفلة ـ الهادية ـ للنساء او سهرة ـ رابحة ـ للرجال وشاع في السوق ان ـ عمار الارقط ـ يتزوج من ـ فافاني ـ بنت امك صالحة وتقبل اصحابه البشرى يباركون منة الله عليه بعد خدمة العسكر وركوب المخاطر وانقطاع خبره من الدنيا مع من اقاموا السنين الطويلة في جبهات القتال . وانهمك ـ عمار ـ وراء المعدات والحاجيات وانهمكت ـ امك صالحة ـ وراء جهاز العروسة ودورها في جوق ـ الهادية ـ من سوسة وتبددت الشكوك وارتاحت النفوس وطارت الزغاريد معلنة عن فاتحة الافراح . وبسط ـ اسحاق ـ الحصائر والزرابي في فناء المعصرة الواسع للقادمين والمدعوين ووقف ـ الحاجة ـ لموائد الطعام وطاف ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ يناديان الناس الى سهرة ـ رابحة ـ التي يقيمها عمار في عرسه . وانتظمت مواكب الفروسية على دق الطبول والمزامير واقيمت سهرة المغنين البدويين ليلة كاملة يبرح فيها صوت ـ عبادة ـ بالصالحي وسهر المدعوون ليلة ثانية مع جوق ـ بيزة ـ في فناء معصرة الزيتون يغني لهم ـ رابحة ـ :

انا العصفور في وكري نغني ... عايش في خير اشكون احسن منى ... واختمر الساهرون وقوفا يصفقون متغزلين تفتنهم محاسن المغنية وصنعة وجهها ورقة صوتها كانها حقا نجمة من نجوم الغناء متجاهلين انه رجل يمتهن الرقص والغناء مع جوق ـ بيزة ـ اليهودي .

واستوى المتفرجون سكارى معربدين مهاجمين يكاد

جميعهم ان ينقضوا على ـ رايحة ـ متغطرسين لا تتقطع تثيرهم بابتساماتها الماكرة . وجاء اليوم الاخير بالخروج الى الحمام في موكب عظيم وراء الطبول والمزامير والبارود . وقدم الناس اسرابا الى موائد الطعام عند الظهر وانتظم موكب العشية في ساحة السوق لا دوار الحلاقة لا تنقطع الطبول والمزامير والعاب المصارعة بين صناديد الرجال المعروفين حتى اذن وقت العشاء وردت الابواب وسط الصخب والضجيج .

واقبل الليل وانتظمت الصفوف باهلها يرفلون في الجبائب ويحفون بالعريس الجالس بين وزيرين من انداده . وبسط منديل الحرير امامه لتكدس اوراق النقد فوقه . وجلس رجل من الثقات يسجل القائمات باسماء اصحابها الذين تماروا في عطاياهم السخية وتعالت اصوات المبرحين يشكرون اهل الجود والكرم من ذوي الهمة كلما امتدت نحوهم يد بالمبلغ القليل او الكثير .

... على راس السلطان ... فرح وهناه دائم ان شاء الله
... خمسة وخميس يحضر محمد ويذهب ابليس ...

وقاطع موكب النسوة يحتاز خطوة خطوة بالعزوسة يحيطهن الرجال بالمشاعل ويصدون المارة لا حق لاحد ان يشق بين النساء في موكبهن الصاخب بالدربكة والزغاريد المسترسلة

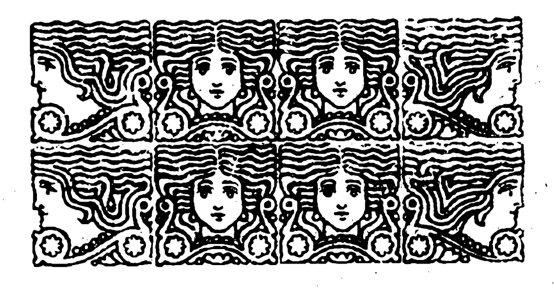
ودقت الطبول اذنة في دور الرجال وانتظم الموكب وامتد الصف وتحركت الخطوات ثقيلة ناعسة لا سبيل ان تقطع شوطها القصير قبل ساعة الفجر ووقف ـ عمار امام بيته يسوي له قيم العرسان جبته ويمسح له وجهه بالروائح المنعشة ولم

يلبث ان تقدم به وسط وزيريه الى باب غرفته .
وارتبك عمار تخامره وقفة العمر كله بالمشاعر الغامضة والخواطر المفعمة قبل ان يجتاز الباب وتختمر الاصوات والطبول والمزامير . ومكث العريس حينا قصيرا مع عروسته اشتد فيها الصخب والضجيج . وقذف المنديل في لحظة رهيبة اعلانا عن بكارة البنت وزعزعت طلقات البارود في افاق السوق وحمى الدوي والصفير يتدافع به الناس خارجين كان مسامعهم ترن فيها الطبول والمزامير بالاحلام الحارة ان تصيبهم فرحة العمر كله بما اصابت عمارا ـ من البذخ والترف

واشتد الضجيج وتعالى الصراخ واحتدم الشهيق وقوي النهيق وتدافعت الافواج يمينا وشمالا كان واقعة تسد طريقهم وتجبر ـ نمرود ـ صائلا بالعمود يكاد ان يرديهم هشيما متساقطا وبرز ـ الابرش ـ شاهرا خنجره يكاد ان يقضمهم قطعا وطارت الاصوات ثائرة ... اضرب ... اقتل ... راسي يسد ... ومدت الايدي واصتدم العنف لا يفرز الضارب ظالما او مظلوما واشتدت الردود قاسية لا يقيل العمود واقفا او مارا وهدد ـ مرجان ـ بالرصاص ـ من زين له الغرور ان يغلب عرب السوق مهما مدت فيها من اعمدة او خناجر وبرز ـ الحاجة ـ ساكرا مترنحا يزدري من قطع البحار في تجارة ـ المارشنوار ـ مبتلعا متاع الناس وصفعه الابرش مهددا وردعه الاخر سابا باصقا كان صلته باصحابه من العساكر المفلحين تضعه فوق الرقاب يمتطيها لاخوف عليه من نمرود او الابرش وكال نمرود الى راس ـ اسحاق ـ ضربة مرة حتى جثا على ركبتيه مغميا لا يخال عرب السوق يمسهم عرب

الشوارع والازقة المهملة ورد مرجان بالرصاص يـزق فـي الفضاء لا يخشى ان يشب بالحرب في قوم ظالمين متغطرسين

واحتدم العراك عنيفا ومدت الاعمدة وسلت الخنـاجر وهب الرجال من كل صوب يتضارعون باشد مالهم من قـوة وهجم الشرطيون يحشرون الضارب والمضروب ويجلـدون المدعوين والمتفرجين حتى اذا لم يكن ما يدعو لجلدهم ونال ـ الحاجة ـ نصيبه مرا قاسيا في دار الشرطة واصاب اسحـاق فوق ما اصاب الحشائشي من العصا والسياط وفر ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ يختفيـان في النهار ويظهـران في الليـل لا تدركهما يد الدريبة ولا تمسهما عصا الشرطة شانهما بعـد كل واقعة اذا حدقت العيون ودعت حاجة البحث الى ايقافهما .



12

ضاقت حركة السوق وعصفت ريح الكساد ، لا يصيب حرث ولا يثمر زيتون . وتضايق الحشائشي لا يطيق حياته بين المجمرة والاباريق واشواطـه التي يقطعها لاهثـا معذبـا ، واستسلم لامين يسابق كرسي الخشب الطويل لا ينقطع يتدبر كل خطة تصيب .

واشتد الحاجة يسابق أسحاقا الى ميعـاد الصبـاح ، يهاجن رب المقهى اليائس من كل رزق او يزدري لاسينا القابع كانه شيخ معزول من خطته المدرارة حتى اذا دمدم صوت باب الاخضر في ساعته مناديا الى ابريق الدريبة وقفت المدامـة ترعى في جوانب السوق نظرتها الشزراء وسحب اسحـاق ذيوله متسكعا حيث لا تدركه يد ولا تنفذ اليه عين ، لا سبيل ان يظهر قبل ان ينتظم مجلس ـ عمار ـ مع اصحابه يثيرون الذكريات البعيدة ويتفكهون بالوقائع العجيبة .

ويعود الليل بالسهرة المشرقة مع مرجان ونمرود والابرش لا ينقطع حشيش او شراب ولا يتراجع فتيـة او غلمـان ولا منهجي أسباب اللهو والمجون ابدا تنفخ فيها السباسي وتروح بها الاقداح وتحلق خلالها الزطلة وراء العصافير في اقفاصهـا واشتدت ضائقة اهل البلد وهبت قوافلهم تسد الطريق الـى السواق القمح والشعير بالجمال وعربات البغال التي يركبها سيد الرجال بالسلاح لا يخيفهم ان يخوضوا حربـا طاحنـة

لتسلم اكياسهم الباهضة وارتفع ثمن القمح واضحى بضاعة السوق الرابحة . واصاب، لامين الخطة التي تغدق الرزق وتغمر بالثروة .

وتدبر عربون تجارته مع صاحبه ـ الحشائشي ـ وهب مغامرا يدفع نمرود مع ـ الابرس في تجارة الحبوب لا يخشى ان يرد الالف الفين الى المقرضين اليهود وتسربت قوافل العربات والجمال في طريق الربع ـ وماطر ـ والمجاز تصب البضاعة صبا عزيزا وازدهرت حركة السوق وانشرحت خواطر الحشائشي وطابت نفسه . واقبل عمار على هذه التجارة متحالفا مع صاحبه ـ مرجان ـ يجنبان من حيث يجني اهل البلد ظافرين غانمين وغدا الصباح موعد المتاجرين للصفقات جملة وتفصيلا وعاد المساء بساعة خروج العرباتِ الى الشمال يحرسها ـ نمرود ـ والابرش ـ واشباههم من لسيد الصناديد

واضحى يوم الاثنين يوم السوق التي تتهاطل فيها اسراب البدو والحضر يشترون القمح والشعير مهما ارتفع ثمنه وانقطع . وافلح المتاجرون واتسعت اموالهم وخامر عمارا ان يتعاطى تجارة القهوة مستقرا في السوق بعدما خاض في جبهات القتال يمزق الرصاص امام عينيه واختار مرجان ان يحتكر التبغ والحشيش والملح ما دام الذين يستاثرون بها او اي احد اخر لم يخرج تاركا الة ودويه ، لا يعرف اذا كان يعود حيا او يذهب اشلاء لاقبر في الدنيا ولاوجه في الاخرة

وشحذ الحاجة هذه البادرة رزين ـ اسحاق ـ هذا الرأي الصواب طامعا ان يجني مع صاحبه قسمه ونصيبا اذا كتب

الله ان يقتلع ـ عمار ـ المقهى من مسمار السوق ويدفع في خدمتها ـ الحاجة ـ الخبيث .

وضع ـ عمار المقهى نصب عينه مترددا على دار ـ المراقب في سوسة لا يضايقه مزاحم في طلب مابات من حق العساكر المتقاعدين ـ واحس ـ الحشائشي ـ الدسيسة مندفعا يذب بالوسائط من اليهود واصحاب ـ المراتب ـ بدفع اليهم فوق ما يدفع الاخر .

واحتدت الخصومة بين طرفين متفاوتين لا يمر نهار دون قيل وقال يشحذ اسبابه ـ الحاجة ـ او اسحاق ويصلح امره لامين ـ

وتشبث ـ الحشائشي ـ يغالب لهيثه معذبا ويقطع اشواطه باسطا كفه مترنما كان ـ عمارا ـ او ـ مرجانا من ابخس الكلاب في هذه السوق بعد ان ظهر من امرهما ما ظهر للناس جميعا .

وجلس رب المقهى يردد مقاطعه مترنما متعاليا كان كل ما بذله من الوسائط لا تساويه حرب ـ لاندوشين ـ وما زين صدر ـ عمار ـ من اوسمة :

... بابا علي قهوة ... الحاج قهوة ... بابا صادق قهوة ... والكلب ابن الكلب ... انا وراءه وربي يراه ... لا رحم الله من ولد ومن ربى ... عنده ... حتى انا عندي ... عندي وعندي ... سيك وسيك ... الكلب ابن الكلب ... انا وراءه وربي يراه ... بالحرام ... ثلاثة في ثلاث ... لن اخرج منها لو استوى طابور من ـ عمار ـ و ـ

مرجان ــ بالمدافع ... قهوة ... قهوة ... الى يوم اموت ...

ووقف ــ الحشائشي ــ تضايقه اصوات القوالين التي يغطها صوت ــ بابا علي ــ مترقرقا :

... ياربي الاعمال عليك ... بالله ... ويشحنها الرادسي مولولا :

... فول سخون بالكمون ... ان شاء اللــه ... ويلاحقهـا بوضنانة ــ مجددا :

مدمس هالفول ... يالله ...

ويلتقي جميعهم في ساحة السوق متسابقين متلاحقين تاركين الشوارع والازقة الى الباعة المتجولين يطغى عليهـم صوت ــ درابة ــ الذي يبيع كل شيء بالشوالق ويشتري كل شيء بالحلوس والاباري والمساسك والعود والكمون واللوبان والخواتم والمرجان .

ووضع ــ الحشائشي ــ طبقه متبرما وقاطعه ــ اسحاق ــ مناورا ووقفت ــ المدامة ــ وسط قططها وكلابها ترعى جوانب السوق نظراتها الشزراء كانها تتهدد ــ اسحاقا ــ المتغـافل وجاء ــ الحاجة ــ يسعى مستبشرا كانه يزف البشرى الى صاحبه :

... يا اسحاق ... عندي لك خبر ... هات البشـارة اعطك السر ...

ودق قلب ــ الحشائشي ــ كان هذه الاشارات وراءها اسرار غارقة لا يدركها الا من تعلم ان يفهم الكلمة من سياقها :

عليك بالمدامة تشفيك ... يافاسق ... بالحرام ... انت واسحاق كشعرة في مفرقي ... وكلاب السوق كلها ...

وضغط ـ الحاجة ـ لسانه مجاوبا تحامل ـ الحشائشي ـ ... جاءك عمار ... يادودة الفساد ... ارحل منها ... سيدك جاءك ...
وجاوب ـ الحشائشي ـ ضاغطا لسانه
... انا سيدك وسيده ... باعا وذراعا ... ابك على حالك ... تتمسح به كانك كلب نصارى ... تلحس فواضساه ... انت وحمارك ـ اسحاق ـ ... اقلب وجهك والا افسدته ... بالحرام ... اضربك بما في يدي ...

وقاطع ـ لامين ـ مسعوذا ينهى ان يعض الكلب كلبا في الرخاء ويدعو ان يبدل هذا الحديث المر ودمدم صوت بابا الاخضر ـ وارتبكت حركة الحشائشي ـ داعيا ربه ان يصيب الكلبين بالوباء القشاش . وهبهب في طريق الدريبة نشيطا واستقباه حاجبها مربتا فوق كتفه يداعبه .

... قمح وزيت ... خدمة ... اغدق من القهوة الرخيصة ... وتلكا رب المقهى متبرءا من كل خدمة وتجارة جازما ان يده لا تطيع غير الطبق والاباريق وقهقه ـ بابا الاخضر ـ يتهم كفه المبسوطة تحت كل طبق ويده التي تصب من كل ابريق واعتقع رب المقهى يسب السفهاء والظالمين من اهل هذه السوق المشحونة بالدساءس والاكاذيب .

وتراجع ـ الحشائشي ـ رضطربا متحاملا يكان ان يصب

الماء في المجمرة وان يعفس في الكؤوس والطبق يائسا وغزاه ـ لامين ـ مواسيا لا يرى ـ عمارا ـ يروم بيع القهوة بعد ان قاد طوابير العساكر في الحرب وتذمر ـ الحشائشي ـ معذبا يجيب ان اولاد الحرام كثيرون لا يريحهم الا ان يدوس القوي الضعيف وهداه ـ لامين ـ مطمئنا ان رزق الله واسع وخدمة الحبوب في هذه الايام تغني عن القهوة الرخيصة وحتى اذا اخفق فيها ـ نمرود ـ والابرش ـ ليست العربة علما مغلقا ليتخلى عنها هو وامثاله . وتنهد رب المقهى يائسا كئيباً كان نفسه تحدثه بالخيبة لا ينتظر ان تدفع شرها الوسائط والرشاوي

وقاطع خادم الدريبة يدعو رب المقهى الغارق في الوساوس . ومشى ـ الحشائشي ـ يكاد لا يرى الناس وقوفا او جلوسا ودخل القاعة الفخمة كانه لم يدخلها في حياته قط . واكب يقبل يد السيد الكاهية شاكرا ممتنا . وباغته ربها صارما :

... أمر المراقب بالمقهى الى عمار ...

وتضرع ـ الحشائشي ـ مسترحما :

... انت ابو الناس في البلد ... انا ابو عيال ... هي باب عيشي ... وحياة راسك ياسيدي ...

واجاب رب الدريبة جافا :

... اومر المراقب ...

وتبكي ـ الحشائشي ـ مختنقا :

... وحياة راسك يا سيدي ... لا باب لي غيرها ... لا وجهة لي غير بابها ... انا ابو صغار ... ابو عيال ... يارب ...

وامر الكاهية صارما :

... اوامر المراقب ... سمعت ... اترك المقهى وكفى ...

واجهش ـ الحشائشي ـ باكيا مسترحما ودفعه خادم الكاهية من كتفيه وراء الباب زاجرا حتى كاد ان يخر متداعيا وتدافع في طريقه لا يرى الناس امامه وجلس يهامس ـ لامينا ـ معذبا مشتتا .

وتقضت ايام يجري فيها رب المقهى وراء الوسائط والاعيان باذلا قفاف البيض والدجاج والعسل دون ان تفلح مساعيهم لدى ـ المراقب ـ وحواشيه ابدا يردون الامر الى كاهية البلد واصحاب الراي عنده . وانفق ـ الحشائشي ـ الامرال والايام دون جدوى مادام ـ عمار ـ من الذين باتشانهم عند الحاكمين عظيما واضحى امرهم مقضيا .

ومسك ـ عمار ـ المقهى دافعا في خدمتها ـ الحاجة ـ وصاحبه واستسلم ـ الحشائشي ـ مقهورا يعزيه ـ لامين ـ مواسيا ان الحق يعلى ولا يعلى عليه وان تجارة الحبوب تغمر اهل البلد باكثر من القهوة الرخيصة .

وانقلبت اية السوق في ايام قليلة وازدهى المقهى بالحرفاء نغريهم الموائد الجديدة والكراسي الجميلة وتشنيف مسامعهم اصوات المغنين من جهاز ـ الراديو ـ الذي انفق فيه ـ عمار ـ قبل اغنياء البلد .

وجد ـ الحشائشي ـ في تجارته مع ـ لامين يعتمد ان ـ الابرش ـ مع نمرود ـ بعد ان وثبا الى الرشاد كانهما

يبنيان الزواج وحياة الناس في البلد . وعجت القوافل لا تنقطع من طريق الشمال . وتكاثرت اسرابها بين الليل والنهار تملا الاسواق بالقمح والشعير ويجني اصحابها فوق ما يجنيه رب الدريبة .

وهب الشرطيون يتجسسون ويتلصصون في كل طريق وعاد الصراع بين الاطراف شديدا ، وبدا النحس يباغت المتاجرين بين غدوهم ورواحهم كما استبد على متاعهم في عربات القطار واضحت الاكياس الباهضة تسلم مرة لتحجز مرات متعاقبة في مخازن ـ البليك ـ

وتعنت رجال القوافل لا يرجعون عن طريقهم وامعن ـ نمرود ـ يجهز مع ـ الابرش ـ ليلة بعد ليلة ويقتحم الجبال والاودية شاهرا السلاح في وجه كل من تصامفه الطريق . واستبد النحس لا يرحم عابرا في الليل او في النهار ... وضاقت الطريق وتراخى ـ لامين ـ لا يريد ان يواصل في سبيل الافلاس وتذمر ـ الحشائشي ـ من هذا الرزق المشحون بالكوارث والاخطار .

اسودت الصفحة وتفاقم خطر التجارة التي كاد ان يركب قوافلها اهل البلد جميعا وتداعى ـ لامين ـ ويئس ـ الحشائشي ـ وابى ـ نمرود ـ ان يكف قبل استرجاع ما ابتز منه الشرطيون لا يقبلون مصالحة او قسمة ... ولاذ يتدرع بالسلاح والتمائم واستقرت قافلته تقتحم السبل المغمورة التي لا يعرفها الشرطيون وتعود بالاكياس المشحونة كان بخت ـ الحشائشي ـ وصاحبه هو سبب النحس في كل

ما وقع المتاجرون من مصائب .

وشقت العربات في طريق ـ زغوان ـ مثقلة تحت جناح الظلام ومشى ـ نمرود ـ متجسسا يفتح امامها طريق النجاة ومشى الرجال حذوها يتثبون الخطر ويقتفون اثر الصفير والاشارات ومشى ـ الارش ـ وراءها يقظا محترزا وهجم الشرطة في ساعة الغفلة وخفقت القلوب وارتعدت الفرائص ومد السلاح في وجوه الرجال المستسلمين وتراجع ـ نمرود ـ نحو عربته جانحا بهم الى المساومة وتتابعت الاصوات مستجدية مسترحمة ـ وابى الواقفون في حق القانون ان يسمعوا كلمة او يرحموا مشفقا .

وتقهقر ـ نمرود ـ كانه لا يفهم لغة المتحدثين يتنازعون ولا يتفاهمون ولم يلبث ان انقض شاهرا سلاحه الجبار ـ وانقض ـ الابرش ـ شاهرا سلاحه من خلف وطوق رجال القافلة اعداءهم في هذه الليلة الحالكة بعد ان ارتدوا خائفين مستعطفين واسلموا السلاح مصفرين .

وخيم الصمت انا وشدت القيود العاتبة في ايدي الشرطيين وارجلهم واختمر ـ نمرود ـ باصقا في وجوه بائسة ولم يتماسك ان انهال ضاربا راكلا وفرت القافلة تطوي الطريق على غير هدى متوخية كل سبيل للنجاة من كارثة هذه الليلة .

دافعا بهم تحت الصخور منتقما لا يخشى عاقبة ولا يخاف يدا وتجبر ـ نمرود ـ يزحزح الشرطيين مع ـ الابرش ـ

تلاحقه بما تلاحق المستقطعين بعد ان انقذ القافلة من شر مـا تستبد به الشرطة على رزق الناس . وقهقه ــ الابرش ــ يشفيه ان يعفس في وجوههم وان يبول في افواههم التــي ادماهـا الضرب والركل .

13

اندس الشرطيون ينبشون في جوانب السوق وتسرب الخبر يهز الناس فزعا ويشحنهم بالتاويل وهرب ـ الحشائشي ـ يكاد ان يدفن نفسه خائفا من شر هذه الكارثة وفارق ـ لامين ـ مقعده فوق كرسي الخشب الطويل لا صاحب له في هذه السوق .

وجد ـ عمار ـ يتشمم الرائحة معتمدا ـ الحاجة ـ و ـ اسحاق ـ في استيقاء كل خبر مريب ـ وامتلات ـ الدريبة ـ بالمستقطعين في السلب والنهب والمشبوهين لا يلبث ربها ان يحيلهم على دار الشرطة لتجري الابحاث مجراها قبل الزج بهم في دار ـ المراقب ـ للبطش والتعذيب .

وحامت الشكوك حول ـ نمرود ـ وانفرد به الزبانية لا يرجعون عنه ساعة دون الحديد والنار يكوي جسمه او الماء المحرق يسمط جلده او تيار الكهرباء يخضه خضا مريعا ويرجه رجا فظيعا حتى اذا فقد رشده كفوا عنه ساعة ليرجعوا اليه مستنطقين مستفرغين صبره .

وتداعى ـ نمرود ـ لا يفقه ولا يعي يسمي ما خطر ان يسمي من اصحابه وسيق ـ الابرش ـ الى دار الشرطة يكويه

الحديد والنار ويسمطه الماء المحرق ويخضه التيار العنيف حتى تداعى يقول ما لا يعرف ويسمى من اهل البلد ومن غيرهم اسماء كثيرة .

وامتلات دار ــ المراقب بالمتهمين تصيبهم الوان التعذيب والانتقام وقضت العدالة بالاشغال الشاقة مدى العمر اذا بقي فيه ما يصلح لخدمة ــ جوقار ــ حيث تنتهي ايام السيد الصناديد في خلاخل الحديد وقيود السلاسل .

واخرس ــ الحشائشي ــ متباعدا عن السوق وحرمتها مستسلما يعيش كما كتب الله ان يعيش محتاجا محتقرا شان من لا ام له يفديها فدية ــ عمار ــ لتضمن عيشه وترفع شانه وخرج ــ لامين ــ في خدمة ــ جلاردي ــ صاحب المقهى الاول في سوسة ورب الهناشير والغروس والمواشي .

وشد ــ عمار ــ خناق السوق يامر وينهي يمناه فيها ــ الحاجة ــ الذي لا تفوته كبيرة ولا صغيرة ولا ترشقه عين شزراء ولا يدمدم في اذنه صوت او يقربه المستقطعون في السلب والنهب ابدا هو ــ الحاجة ــ الذي بات يرعى شؤون المقهى حاذقا ماهرا وينفذ الى السرائر ثاقبا يمناه ــ اسحاق ــ المتخابل بقطع الاشواط بالطبق فوق كفه عاشقا مترنما ويسعى بين اهل السوق خادما امينا مطيعا .

واقبلت الايام امينة صاغرة يقبض ناصيتها ــ عمار ــ مستحلا عفسها ورفسها بعد ان وهبت خدمة السنين في العسكر مقهى السوق ورقاب اهلها واباحت له ان يلعب ادواره

رابحا لا يخشى خسارة .

وضحكت الدنيا في وجه ـ فافاني تخامرها الايام بالجنات النعيم وراحت امها تختار لها من الجواهر النادرة والمكاسب الغالية ما لم تملكه امرأة غيرها ـ وسادة تحت راسها لا يضاهيها غنم ولا بقر ولا ارض ولا زيتون اذا دارت السنون لا ترحم .

واضحت ـ فافاني سيدة النساء توقرها الجارات ويهابها الرجال ويقوم لها الخدم والحشم في شؤون دارها كما يقوم لها ـ الحاجة ـ و ـ اسحاق ـ بالنفقة المختارة ما دام ـ عمار ـ لا يهب من نومه قبل ساعة العصر ليجلس ساعة او اكثر لاعبا متفكها حتى يحين وقت السهرة وينفتح باب الرزق مع اللاعبين المقامرين يجني كل قدر مهارته وخفة اصابعه ومعرفته بادوار الربح ، لا يتراجع ـ بابا الاخضر ـ عن حلقة الرزق والنصيب واوراق النقد المكدسة ، ولا يتخلف ـ الكاهية ـ وحواشيه ان يتساقطوا يصيبون ـ دارا في حلقة اللعب ، ابداهي اوراق ـ النوفي ـ الثلاثة تدور بينهم مرة ترميهم باكداس النقود حتى تشع وجوههم وتتهدج أصواتهم ويكاد الرابح ان يقفز ظافرا تخامره الاحلام ان يشتري البواخر في بحارها وتطالعهم الاوراق مرة بعد مرة بالوجوه المخضرة او الارقام الخاسرة حتى يكاد الخاسرون ان يندسوا في المجمرة مصفرين نافخين وينتفض مجلسهم ساعة الفجر بعد كمية ـ التكروري ـ التي تبعث في نفوس الخاسرين امال الربح وتسبح بالرابحين في دنيا الكسب والرزق ـ ويغري الشراب الاحمر من لا امل لهم في ربح او خسارة من حلقة ـ عمار ـ

والرازحين في حبائلها .

وافلح ـ عمار ـ في امد قصير واصابه الدهر بالمغنى فوق ما اصـــاب الذين صبغتهم الحرب بالمغـــانم من ـ سوسة ـ او الذين حباهم رب الدريبة بالصفقات الرابحة من كميات الزيت والدقيق والسكر .

وامتدت يد ـ عمار ـ في شراء المكاسب من الغـــروس والهناشير والاغنام والابقار واقبل اهل الســـوق يتمسحـــون موقرين متقربين بالنسب والحسب والحسب حتى باتت امـــك صالحة ـ من النساء التي لا يطمع في يد بناتها غير من ربطته صلة قريبة او بعيدة بال ـ عمار ـ الذي اطلق يده منفقا مبذرا على بنات حماته اليتيمات لا يتردد ان يدفع في جهاز العروسة وان يتـــدرج في الصف مع العـــريس مواصـــلا بين الطبـــول والمزامير دافعا غرفة ـ فافاني ـ كانه يدخل ليلة العمر كله . واضحى اهل السوق يدفعونه أن يرسخ في عادته ويجـــري على سننته حتى يعرف الناس حق قدره ويعبدوا ماله وجاهه

وباتت ـ فافاني ـ سيدة النساء كما بات زوجها سيـــد الرجال ، ينفق مجالسه وسهراته من حيث تنفق هي الخـــدم والحشم ، وتقتني الملابس من اخر ما شاع وذاع عند الاكابر والاغنياء وتتانق في حليها الثمينة من حيث تلبس السيدات المعروفات بالحلي والجواهر ، لا يملـــك غيرهن مـــا للاـــذني اخراصا وما لليدين ـ شناشن ـ اسورة وما للرقبة قـــلائد تزين الصدر وسلاسل تخب الى الركبتين وما يلبـــس فـــوق الجبين يكاد ذهبه ان ياخذ ابصار من لا عهد لهـــن بالذهـــب

وشانه وما يوضع في الساقين ليزن في عيون النساء الموازين المغربية .

وايقنت ـ فافني ـ انها ربة النساء في البلـد لا تكـاد تدخل الحمام حتى تجري لها من النسوة من تصـون حقيبـة ثيابها ومصوغها ومن تحجز لها مقعدها في مقصورة الغنيات ومن تقف لها في اغتسالها لا تتركها قبل ان تبيض قشرتهـا وتعود بشرتها ناعمة ملساء وتستقر رائحتها ذكيـة جذابـة مثيرة .

وتالق نجم ـ فافاني ـ في كل ما خرجت الى الاعراس والافراح ، مقعدها في صف السيدات المحظوظات ، العيون تتخاطفها وتلهج باسمها الالسن ، اهل العروسة والعـريس يحفونها بالعناية الفائقة ويخصونها بالمائدة الفاخرة ، اصوات النسوة يتفجرن بالزغاريد كلما امتدت يدها باوراق النقـود الى ـ الماشطة ـ التي تبرح منوهة شاكرة اهل الجود والكرم .

وبات ـ عمار ـ قطب السوق يامـر وينهـي ـ يهابـه المشائخ واطراف الدريبة . وكاد ـ الحشائشي ـ ان يرتمـي في خدمته يائسا ان تدور الدوائر وكاد ـ لامين ـ ان يتراجع عن شؤون ـ جلاردي ـ وما له فيها من نصيب ليعتصم فوق كرسي الخشب ويصيب من حيث بات يصيـب ـ الحاجـة ـ و ـ اسحاق ـ في حلقات القمار .

وطار اسم ـ عمار ـ في البلد يوقره النـاس جميعـا ويبجله الكاهية يهابه ـ بابا الاخضر ـ ويشهـد له العشـرة

الكبار قارئين حسابه في الكبيرة والصغيرة اجمع الجمهور من سفهاء الناس ان عمارا ركن من اركان البلد وعضدا من اعضاد الحكم ـ يصيب من رزقه الفقير والحقير ويستجير في حماه الضعيف والمقهور ، هو الفاصل بين الناس قبل الكاهية وبعده ـ العارف ـ الثاقب قبل الشرطيين والمتجسسين .

وازدهرت تجارة ـ عمار ـ لا يقف عند نصيب المقهى وحلقات القمار وراح يمد يدا مع ـ المدامة ـ في بيع الشراب ويدا مع حماته في بيع الذهب واجهزة العرائس ما دام ـ خموس ـ لا يردها عن الحانوت كاملة وانغمس ـ عمار ـ في تجارة الزيوت والحبوب يدفع فيها المتاجرون بما اوتي من مال وجاه حتى بات رب السوق الفاتق الناطق .

واحب ـ عمار ـ الحياة المتبرجة ابدا يقول لاشياءها كوني لتكون كاحسن ما ينتظر ان تكون ناعمة لذيذة مغرية ، تملؤها ـ فافاني العروسة ذات القد الفارع والصوت الموقع والملامح الجذابة كانها تباشير الربيع .

واحبت ـ فافاني ـ الحياة المقبلة ـ عمار ـ الصنديد يملؤها ، تطلب الالف لتاخذ الالفين ، تنفق في كل شراء ، تبذل في كل باب مالها في كفها لا تنتظر زرعا كما ينتظره نساء الفلاحين والكادحين ، ابدا تدفعهم احلامهم وراء الزرع والزيتون لا يقضون حاجة ولا ينجزون مشروعا .

واحب ـ الحاجة ـ الحياة ازاء المجمرة ابدا يطالع فجره نشيطا ـ واحب ـ اسحاق ـ الحياة ابدا يقطع الاشواط

حدصا ، حتى اذا اذن الليل وجاء موعد اللاعبين المقامرين امتلات الجيوب بالنقود وازدهرت السهرة بالحشيش والشراب وازدهت النشوة بالغناء والطرب الى ساعة الفجر التي يجب فيها ــ الحاجة ــ الى عمله نشيطا قبل ان ينادي المؤذن فــي صومعة المسجد ويهبهب ــ اسحاق ــ في طريق الحوانيت .

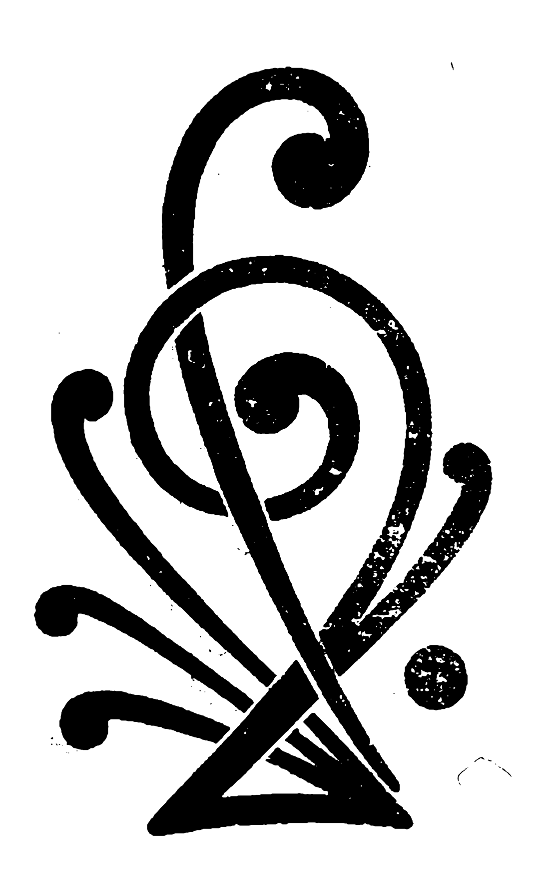
وغمرت الايام اهل السوق بالنعيم والرضوان وصـــال فيها ــ عمار ــ تملا وجال بين يديه ــ الحاجة ــ و ــ أسحاق ــ لا يخشيان حتى مرجان ــ المتمسح في اطراف ــ الدريبة ــ ولا يتخلفان عن ــ بابا علي ــ الذي يبيع نعال ــ القيــروان ــ الــى اهل البلد باقل من التي يصنعها لهم ــ الحاج الصفــاقسي ــ في حانوته مشطا انها اخر ما شاع من الاحذية الانيقة .

وانغمس ــ بابا صادق ــ يغمر السوق بانواع الملابس الانيقة والاقمشة الرفيعة معتمدا مال ــ عمار ــ حتى كاد الناس ان يرفلو في الحرير والديباج ما دام صاحب الحانوت يعاملهم بالصبر منتظرا ان يصيب زرعهم ليدفعوا الالف واختها ويقبلون يد ــ عمار ــ التي فكت عقالهم في ايام الشدة .

واحبت السوق اهلها واشرقت الوجوه بالامل والاحلام لا اثــر من اثار الحــرب الكريهــة ودقيــق الكــلاب وزيــت ــ الكاكوية ــ بعدما استاثر به ارباب الحوانيت لا يرحمــون صفوف الواقفين كانهم لا حق لهم حتى في الماء والهواء الذي كاد المتسابقون في اسواق ــ المارشنوار ــ ان ينقطعــوا بــه الى عربات القطار لو اوتي لهم ان يقطعــوه ويروحــوا بــه ناجرين غانمين .

واحب اهل الحوانيت وجه سوقهم بعد ان تقلص منها ظل ـ الحشائشي ـ الذي كان يطالعهم باللهيث والفحيح كانـه يتهددهم بالوباء والعدوى ويرميهم بالنحس كل النحس بعدما داهمهم وباء الحمى القشاش والجرب الحكـاك لا يسلم منـه كبير او صغير .

وتنفست السوق تعيش ايامها امنة يدفع عنها عمار كل اذى ويعرض صدره كلما خطر ان يرد عنها ويذب عن اهلها ـ ابدا هو ـ عمار ـ الذي يهابه الكاهية ويوقره الشرطيـون ويقرأ حسابه المشائخ والعشرة الكبار .



— 14 —

هجر ـ لامين ـ سوقه التي سقطت في قبضة ـ عمار ـ واشترت كلابها بالكرير والنبيح ليجني ربها من كل رزق ونصيب وبدل مقعده في مقهى ـ الحشائشي ـ بالكرسي المبطن في مقهى ـ جلاردي ـ الشهير الذي لا يدخله غير اليهود والنصارى ولا يقربه غير الاكابر ورجال الاعمال .

وانغمس ـ لامين ـ في خدمة صاحبه المفلح لا يقف نشاطه عند تجارة او حرث وحصاد او مكاسب الاغنام والابقار وامتلاك العقارات التي لا يطولها غير اليهود والنصارى المحفوظين ابدا تتكاتف ايديهم على مسك خناق المال والاعمال وتشتد لسواعدهم على امتداد الارزاق حتى يستوي حقهم في بلاد الناس حقا مكتسبا .

وفاز ـ لامين ـ بالثقة الغالية بعد وساطته المثمرة بين بين اليهود والمتاجرين من اهل البلد يشتري لهم الصاع صاعين ويردون الالف الفين ما دامت الارباح يغدقها عليهم جميعا اغبياء الناس من الضعفاء والبائسين واحب ـ جلاردي ـ صاحبه الحريص على شؤون الفلاحة التي يحسن تدبيرها وينتقي لها العاملين من اهل البادية مستاثرا بالثقة حاذقا امينا صارما رقيبا لا يتنازل في حق النصراني ولا يغمط حق

الاخرين ، كان صلته بالرجال والاعمال علمته ان يقــرا كــل حساب وان يجمع بين الصرامة والحزم وبين الدهاء والسياسة حتى لا تفوته كبيرة او صغيرة ولا يخفاه ما تشع به الوجوه او ما تضمره النفوس .

واشتد نشاط ـ لامين ـ بين المزارع الواسعة يقف لحرثها وحصادها ، تكويم التبن وادخار العلف جز الغنم وتســويق الصوف . تربية المواشي والدواجن جمع الزيتـون وخدمتـه بالحرث والحش وتجديد الســواقي للماء الغزيــر . مقاومــة الزرزور والافات الكثيرة .

واقام ـ لامين ـ يرعى هذه الشؤون الكثيرة التي لا بد منها لتعطي كل شجرة مالها ان تعطى من ثمار حتى اذا لــم ينزل الغيث كما يجب ان ينزل في كل سنة مرة في الخــريف واخرى في ـ مارس ـ المريب واخرى في ـ افريــل البــوال ليستكمل العام فحولته ويفتر عن الصابة التي ينتظرها الناس جميعا في الصيف كما ينتظرونها في الشتاء . كذلك تستقيم حياتهم وتكثر اعراسهم وتتجدد معاملاتهم وتتراكم احلامهم بالرزق والاعمال .

واصاب ـ لامين ـ وامتــلات داره بالبغــال والابقــار والاغنام التي دفع في خدمتها الرجال من اهل البلــد الذيــن يطيب لهم أن يقفوا النهار بين مرابطها يسرقــون الخــروب المرحي والفول الذي يقدمه ربها علفا من مخازن ـ جلاردي ـ ويختلسون الشعير المتراكم اكياسا في سقيفة ـ الزريبــة ـ كان صاحبهم من اغنياء اليهود .

واغمس – لامين – لا يرجع عن هذه الثكنة المشحونة التي يدير شؤون خزائنها المحشوة لا حسيب ولا رقيب . لا يطلب سلالم او فرشا او اكياسا دون أن يمد اليه صاحبه ورقة واحدة تاتيه باضعاف ما طلب . ولا يشير الى علف او دقيق او مونة الخنزير دون ان يتقاضى قناطير معباة لا يراها – جلاردي – الا تافهة لحياة الدواب والدواليب الكثيرة . ولم يكن يحين الشتاء دون أن يقوم – لامين موسمه بين الغروس ومعصرة – كروانة – يقف للجني والرحي ويراقب حساب الزيوت وعمليات التسويق وادخار المخازن . ولم يكن يعود موسم الحصاد دون ان يقف – لامين – صارما حريصا ليلا نهارا يشحن عربات القطار بالحبوب ويجمع التبن اكواما .

وامتلات دار – لامين – وغصت سقيفتها وشاع خبره بين الناس يتهامسونه . وتهكم – اسحاق – يحدث – الحاجة – عن هذه الثروة التي تتراكم وراء السوق . واحس – عمار – ان – لامينا – يتهدد امنه اذا اتسع ماله ، واشار – الحاجة – ان يشي الى – جلاردي – خيانته واضمر رب المقهى ان يكيد اليه حقا وباطلا حتى يريبه ويضايقه .

واحس – لامين – ان الخطر يحدق في جوانبه من الكلاب المتنابحة تحرس – عمارا – وسطوته . واختار ان يسرب متاعه الى البادية مصطفيا خيارها ليكنز عندهم محاصيله ويتستر وراءهم لا تدركه يد – عمار – الكلابه ولا – كاهية – وحواشيه ولا حتى يد – جلاردي – اذا جد الجد وزهق الباطل .

وضحكت الايام زاهية في وجه – لامين – يجني الثروة

ويدخر المال لا يعرف سره الفارق حتى اهل داره ولا يرد خبر مكاسبه من انتصب يرد اخبار المكاسب والثروات . وسرى اسمه في افواه البد وبعد ان اتسعت شركاته في الحرث والحصاد والاغنام والمواشي .

وافلح ـ لامين ـ في تدبيره . وامن جلاردي ـ شر الاجلاف الذين لا يطيب لهم استبداد رجل ـ مالطي ـ في ارضهم التي وهبها حكم ـ الفرنسيس ـ الى المعمرين ولم تكن يد المراقب تصيبهم الا بما يلاحقهم ابناء جنسهم من العرب الماكرين . ورضي ـ جلاردي ـ عن صاحبه الثابت لا يسمع فيه كلمة بعد ان بات رجله الاول يقف للكيل والوزن والتسويق ـ ويمسك الحسابات في راسه كانه دفتر . ويجمع الارباح الجمة من كل نشاط ... المحاصيل التي تفتر لها شفاه ربه ويشرق وجهه ويربت فوق كتف عبده مستحسنا ـ يعجبه هذا الرجل الطموح الى اسواق الدنيا ، كانه لا يهون عليه ان يربح ـ خياط ـ او ـ درموني ـ او ـ كروانة ـ من يهود سوسة الذين احتكروا الحلفاء والزيوت والحبوب .

واحب ـ جلاردي ـ صاحبه الذي بات يحلم ان تشق بواخره البحار بالبضائع بين سوسة وبلاد الدنيا مستاثره في كل ما يرد على كبار المتاجرين وتصدير كل ما يتسابقون به الى اطراف العالم حتى باتت الدولة في ايديهم صاغرة لا حكم لها الا ما هو حكمهم .

واشرقت ايام اليهود والنصارى والعرب في البلاد قاطبة ـ واصابت السنون من كل رزق ، يشقري ثروتها قبل

اوانها ـ درموني ـ واشباهه بابخس ما يكون الشراء ـ حتى اذا جاء موسم الزرع أو الزيتون ، ضاقت الموانى بالقمـوح الطيبة والزيوت الصافية واحتدمت حركة البحار بالبواخـر المثقلة بعد موسم الحلفاء ما بين صيف وشتـاء ، يشتريهـا اصحاب المصانع من الانجليز كما يشتري ـ درابـة ـ مـن الشوارع والازقة يبيعها المتاجرون منهم الى اهلها كما يبيع ـ بابا صادق ـ بضاعته الى اهل السوق ، لا يزاحمه احد ، مـا دام ـ عمار ـ هـو صاحب الحل والعقـد عند النـاس ، ياخذون منه حتى تصيب مواسمهم ، وياخذ من اليهود حتى يدفع اليه الناس .

واحب ـ سي الامين ـ ايامه المشرقة تتـراءى له فيهـا البحار ضيقة لا تتسع لتجارة ـ جلاردي ـ ابـدا هي تنمـو وتمتد في البنوك والمقاهي والحانات ومسارح اللهو وقاعات ـ السنما ـ ودور المجون ابدا هي الايدي المليئة تلتقي متكاتفة والسواعد الصماء تشتد متازرة ـ حتى تقوم دولة المال جبارة منيعة لا تقدر عليها دولة ـ الفرنسيس ـ اذا اعتصم كل طرف بما له من حق محتميا في حصنه الذي شاده من عرق جبينه وانفق فيه بصر عينه، لا تدركه الحماية بالاعيبها التيتنصبها ولا يقع فيها غير العرب ، ابدا يرميهم الطمع في قعر البحر وراء قرطاس ـ التكروري ـ ويوقعهم البؤس في قيود السلاسل وراء

بقيا الالمان والمزابل الانجليز والامريكان .

واحبت الايام اهلها تهب لهم كنوزها وتغدق رزقهـا . وانقطع ـ لامين ـ في سوسة يكاد ان يرحل اليها باله وذويه يصيب من حيث يصيب اهلها اليهود والنصـارى رابحيـن

غانمين ، رصيدهم فيها خزائن البنوك ورعاية الدولة ، وخدمهم ابناء البلد الاوفياء ، مستبشرين ان يعود ماؤهم خمرا من ـ البوخة ـ وينقاب طعامهم لحما من ذبائح ـ الربي ـ الكبير الذي احل الله سكينه وبارك يمناه فوق ما احل وبارك لابناء العرب المسلمين .

وكاد ـ سي لامين ـ ان يلبس الكسوة ـ السوري ـ ويبدل ـ كبوسه ـ الاحمر بالقبعة الجميلة ويندس فوق كرسي الابنوس شاربا مستهترا تلعب الكؤوس في راسه سابحا في البحار وراء اسواق التجارة كما تسبح ـ السباسي ـ بالحاجة وراء الاسوار والاقمار .

وتخلفت سوق ـ عمار ـ الرخيص وكلابها المتنابحة ازاء الجيفة الحرام ، لا تشبع ولا تغني وافترت المدينة المشرقة عن باسم الحياة ومغزى الوجود لا يخالها ـ سي لامين ـ الا جنات عدن تجري من تحتها الانهار بالقمح والزيت والنقود ... النقود التي تشق البحر طريقا وتركب الجو حصانا ... حتى اذا عاد الالمان سيد الدنيا ورب العباد من البيض والسود والعرب واليهود .

واكتشف ـ لامين ـ دنياه التي اقام السنين ينتظر ساعة هبوبها . وشا الله ان يهتدي اليها عند ـ جلاردي ـ ويطول كرسيه في مقهاه الذي هو قلب المدينة ويستاثر بالفلاحة ودو اليها التي هي محور الثروة وسبب الحياة ... الغنم ... البقر ... البغال ... الابل ... الخيل الدواجن ... الخنزير ... الزيتون ... القمح ... الشعير ...

الصوف ... العسل ... البيض ... مال ويااله من مـال ... لا يطمع فيه حتى الباي القابع في قصره ... مال وياله مـن مال يشتري سوسة واكثر منها ... جلاردي العظيم يشتري البلد باهله ... درموني ـ الجبار يشتري الباي ومملكته ... دما عمار وسوقه الا قطرة حقيرة من بحر غارق قاعه الماس والزبرجد وما ـ سوسة ـ الانفة مـن اكوام تسـد الفضـاء الشاسع في افاق الدنيا ... وما تونس الا حفنة من تـراب عوالم لا حدود لها ... مفاتحها اليهود وابوابهم النصارى .

واحب ـ لامين ـ عالمه وتهالك على مفاتنه يعيش ثريا متكتمـا وراء البدو حتى يبدل اللـه الايام ويامـن جـانب ـ جلاردي ـ اذا كان لا بد أن يهتدي الى ادواره الكثيرة ما بقي عباد الله يقفون له في مصالحه ويحرصون على شؤونـه دون ان يوكل اليهم امرا من اموره التي وهبها الى حاشيته مستغنيا ، كان حقهم ان يبتوا في امور ـ جلاردي ـ كما يبت الشرطيون في شؤون الباي .

واستقر ـ لامين ـ اقرب الناس عند ـ جلاردي ـ لا تناله الوشايات ولا تصيبه الطعنات ابدا هو صاحب الامر والنهي في دواليب الفلاحة ومدخرات الزيوت والحبوب وعلف المواشي لا رقيب غيره في متاع صاحبه الذي عهد اليه برزقه واستخلفه على ارضه كانه احد ابناءه او هو اقرب منهم اليه في حصاد الثروة وجمع اسباب الزرق .

15

تقهقر ـ الحشائشي ـ لا ايام له مع اهل السوق ـ يرتاد حوانيت الشارع ـ جالسا طول النهار يظفر جريد النخل ويخيطه قفافا يبيعها لينفق على كلبته وعصفورته قبل عياله وشؤونهم ويتدبر كميته من الحشيش والتبغ قبل كل طعام وشراب .

واستسلم ـ الحشائشي يائسا مقهورا ـ يعيش وراء السوق لا تاتي ساعة الضحى دون ان يتشارك مع الجالسين في كمية الشاي والسكر ، يشربون ويتحدثون كل حديث ، حتى اذا اذنت ساعة الطعام ، ضم ظفائره ورجع الى داره يتناول من كل طعام تقدمه زوجته . ويخرج للسهرة في حانوته الصغير حذو الدار ، منغمسا مع من اختار لها ، كانه يعزي نفسه عن ايام المقهى بعد ما بات ـ عمار ـ رب السوق يمتطي الرقاب ويرتمي الناس في احضانه .

واستقرت السهرة كل ليلة بعد صلاة العشاء وانقطاع الخطوات من الشارع ، لا يبقى فيها غير مجاس ـ عمار ـ مع اصحابه الراسخين في حلقة القمار ، لا يتراجعون عنها خاسرين او رابحين يبرح بهم الشوق ، ويتعتعهم الحشيش ، ويسكرهم الشراب ، وتغرهم الاحلام وتسبح بهم الاوهام حتى

كانهم ضفادع في جوار الغدران الراكدة .

عاد الليل ووقف ـ الحشائشي يجهز طبق السهرة بالتمر والحلوى الشامية وشريحة ـ التين لا يهمه من دنيا النـاس الحقيرة ما بات يهم اهلها . وتمسحت كلبته ، حزينة ، تتشمم ذيوله وفترت عصفورته ، منكوبة ، عن قفزاتها بين طـوابق قفصها المزدان بالازهار كانها تبكي عهد السوق وايام ربها فيها ورابه ان تمر امراة متلحفة في ساعة لا تمر فيها النســاء ، كانتها هاربة من الليل تقضيه وحدها . وتخطى وراءها متكتما حتى عرف مبيتها . وتراجع مترددا لا يصدق ان تقصد النساء هذا الباب المخيف في ظلام الليل . ووقف مرتبكا يلعن الظـن الاثيم وينهي لسانه عن العباد .

وانتظم المجلس وتراقصت الدنيا ترد القردة المخســوءة غزلانا شاردة . وابرقت العيون وقـدحت النظـرات وغـرق الحديث . وقهقه ـ الحشائشي ـ يشير الى كنز في مغـارة ـ بوصنانة ـ وراء السوق . وانفجر الضحك كان صاحبهـم سقط ـ مزطولا ـ واغرق ـ الحشائشي ـ اليمين ان هذا الرجل العجوز تجيئه العروسة كل ليلة في الخفاء لا يجد عند احد انه من الاحياء . ووقف ـ الحشائشي ـ مستهترا يدعوهـم ان يناصصوا سهرته في خربته .

واطاع الساهرون ضاحكين متفكهين وتسربوا نحو الدار عابثين مترنمين وقذف ـ الحشائشي ـ الحجـر فوق البـاب مستفزا واجاب ـ بوصنانه ـ لاعند سابا ، وتساقط الحجـر فوق الباب لا يجيبه ـ بوصنانه ـ الا سابا مستعوذا من شر

السكارى والابقين . وتصاعدت الاصداء واحس ـ الحاجة ـ ان السوق محاصرة . وقفز ـ اسحاق ـ يرهف السمع وقهقه ـ عمار ـ لا يرى غير حركة الكلاب السارفة .

وقوى الضجيج ووقف الساهرون خوفا من السطـاة الطامعين في حلقتهم . وهب عمار خارجا يستنكـر القهقهـة القريبة وصوت ـ بوصنانة ـ الذي يترقرق بالردود الفاحشة . وتدافع اصحابه وراءه حتى فاجاهم ـ الحشائشي ـ ورفاقه يتعتعهم صلف الحشيش ويشوقهم العبث والفضول .

وتحامل ـ الحاجة ـ ينهاهم صارخا عن مراودة رجـل عجوز في داره :

... فساد ... اكبر فساد ... اما لقيتم غير هذا الرجل ... الدود ... الشيب ... ياسيدي ... دود ...

وبصق ـ اسحاق ـ يسب دود الفساد :

... ما برئت السوق حتى اندست الدودة في جوانبها مستفحلة بالعدوى ... لا يسلم حتى ـ بوصنانة ـ

وقهقه ـ الحشائشي ـ ساخرا

... دودة ـ بوصنانة ـ ادهى ... اقتحموا الباب ترون ماذا عنده ... وكذب ـ عمار ـ كل ظن اثيم .

... لعن الله التكروري ... لعـب في رؤوسكـم ... بوصنانة ـ رجل غريب ناهز الستين وجف ماؤه .

واغرق ـ الحشائشي ـ يمين الحرام ثلاثا :

... انا شاهدت بعيني امراة تدفع بابه ... اذا لم تجدوهـا

افعلوا بي ما شئتم ... بالحرام رايهـا ... انا ... رايتهـا متلحفة متكتمة تسترق خطاها متهيبة ...

واشتدت الاصوات واستيقظ النائمون واتسعت الحلقة . وارتقى ـ اسحاق ـ فوق السطح ينـادي دون أن يجيبـه ـ صوصنانة ـ . ونادى ـ عمار ـ مدمدما لا يجيبه غير صوته مدويا في الظلام . وجد عنـد ـ الواقفين ـ مـا اقسـم بـه ـ الحشائشي ـ واثقا .

وحاصر الرجال هذا الباب يتهددون ـ بوصانة ـ بالموت اذا لم يخرج . واختلطت الاصوات ساعة طويلة ... اقتلوه ... فاجر ... افعاله الشنيعة تركته يبيع الفول لا يربح ثمن زوجة حتى مهجولة ...

واشتدت المحاصرة ـ لا ترحم هذا الرجل الابـق الـذي يفجر في قلب السوق ويرميها بالعار الذي لا تمحوه الايام . وتفاقم الغضب ، لا حكم عند المحاصرين غير حكـم الشـرع الحنيف وكثر الرغاء لا سبيـل ان يتقهقر الرجـال قبـل ان يستسلم لهم ـ بوصننانة ـ

ودمدم ـ عمار ـ ينادي لا يجيبـه غير صوتـه مدويـا ـ وضاق الخناق علـى دار ـ بوصنانـة ـ ليمـوت رجمـا بالحجـارة . وتحركت السـوق بالمصلين والخارجيـن الـى شؤونهم وارتجت المسامع بالخبر الفظيع يهز اهلها ويحطهـم مستغفرين .

وعاد ـ اسحاق ـ ينادي واذن ـ عمار ـ ان يقتحموا الباب . وتدافع المرابطون يحطمون الحاجز لا خوف عليهم من العواقب التي يخافونهـا دون اذن عمار . وانصب الرجال ينهبون الدار لا اثر لامراة . وتثاءب ـ بوصنانـة ـ ينهاهـم فاترا مستغفرا من شر ما اقعده عن طبخ الفول في ساعته .

واصفر ـ الحشائشي ـ مرتبكا . ومسك ـ اسحـاق ـ كتفه متوعدا وقبض ـ الحاجة ـ خناقه متهددا وحملق فيـه ـ عمار ـ كان اليوم نهاره . وطرقه الرجال تختلط اصواتهم بالكلام الفاحش والنعوت المقذعة .

واحمر ـ عمار ـ يصفع هذا النامس الخبيث مزمجرا :
... لا يسلم من شرك حتى ـ بوصنانة ـ لا ترقد ولا تخلـي من يرقد ... ياكلب ... الشيب والعيب ... بت بالرجـال بين السطح والارض يخنقون رجـلا عجوزا بريئـا من كـل ذنب ...

وتهدج صوت ـ الحشائشي ـ مغرقا اليمين :
... بالحرام ... ثلاثا في ثلاث ... امراة متاحفـة دخلـت بعد العشاء ... بالحرام رايتها ...
ونتف ـ الحاجة ـ شعرة من شاربه باصقا فيهـا بيـن اصابعه ... شعر شيطان ... محراك جهنـم ... بالحـرام حكمـي عليـك ـ يا كلب ... دوارة في عنقـك تشـق بهـا السوق ...
وصفق ـ اسحاق ـ متشفيا :

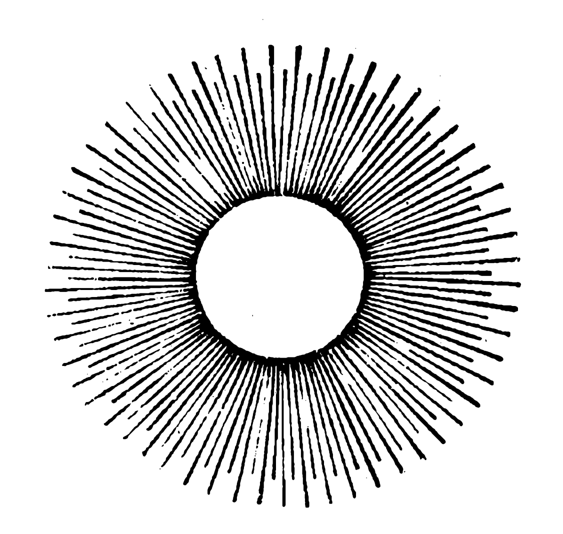
... بودوارة شنعوه ... بص عقله ... طوفوه ...

وقبض ـ عمار ـ كتف ـ الحشائشي ـ يخضه ويرجه ويدفعه بين الواقفين يصفعونه ويبصقون في وجهه . وعاد ـ عمار ـ يشد خناقه ، يكاد ان يقبض انفاسه المتقطعة وكره الى ـ الدريبة ـ يرميه في قبضة ـ بابا الاخضر ـ حتى يعلم ـ الكاهية ـ وينفذ فيه حكمه وسقط ـ الحشائشي ـ اصفر لا يفقه ولا يعي دمعته فائضة في عينه كانها دمعة الفراق وركله ـ عمار ـ لا ينطلي عليه ان يقطع النفس متماوتا لينجو من سجن ـ بابا الاخضر ـ حتى رق قلب ـ اسحاق ـ واشفقت ـ المدامة ـ وكر ـ بابا الاخضر ـ الرجل المغمي من ساقه يزج به في مقصورة مهملة .

وتحدث اهل السوق مستغفرين مستتيبين ، لا يصدقون ان يفجر ـ بوصانة ـ في عمره واعراضه عن الدنيا ، ولا يكذبون ـ الحشائشي ـ دون سبب يدعوه الى الكذب ليسقط في ـ الدريبة ـ يتفرج فيه الست والستون ، كانه هو الزاني بامراة لا اثر لها في ليلة قضاها ـ عمار ـ مرابطا مع رجاله يحاصرون مخفر الرذيلة والفحشاء .

ولعن ـ بابا علي ـ الظنون كلها داعيا الله ان ياخذ الفاسق والفاجر بما تسعى يده ، لا حق ان يعفس العباد بعضهم شامتين متشفين ، لو بات ـ بوصنانة ـ مع صاحبته وليس بين الرجال من لا يحب النساء ولا بينهن من تكره العلاقة .

واعترض ـ الحاج الصفاقسي ـ ان الله امر الرجـال ان يتزوجوا النساء على البر والتقوى . وجادل ـ بابا صادق ـ ان ابن ادم لا يطيق الحياة في صورة او اخرى كان الله شاء له ان تلتوي به الطريق في كل خطوة ، وكم بين الرجال مـن يترك العروسة الغضة في الدار ليقضي ليلته وراء من انقطعت عنها الشهوة كانها حجر جامد لا يمسها الحر الا كما يمسها القرو ولا خير في دنيا تتكالب ايناثها وراء ذكورها حتى من العجائز والشيوخ .



16

ابتلع ـ جوقار ـ اخبار ـ نمرود ـ الجبار مع صاحبه الابرش ، لا تنفك قيود السلاسل تشد اشباههما خلاخل رنانة في ارجلهم . النهار يسوقهم الى اشغالهم الشاقة في حك الرمل بالاقدام او تفتيت الحصى بالاكف ، لا يرجع عنهم ـ سلام ـ بالسياط كلما ظهر له تراخيهم ويعود بهم الليل الى غياهب السجون ، يتجاذبون الحديث ، يثيرون الذكريات ، ينصبون ما توحي به خواطرهم ، لا تقل فيهم الخلاخل ولا السلاسل ولا يخيفهم سياط ـ سلام ورهطه من الذين يقفون لهم بالسلاح .

وبات نمرود ـ يتدبر خطته التي بناها في راسه يهمس بها الى ـ الابرش ـ كلما جاء الليل ليرتمي منهوكا من حك الرمل وقت الحصى لا امل ان يبارح ـ جوقار ـ الا جيفة نتناء وهاج نمرود لا يقبل حياة ، طعامها الخبز الجاف وشرابها الماء العفن ، مونة كلاب وخدمة عذاب . ـ سلام ـ الحقير يشد خناقهم بالسياط ، فواضل السجاير يعيدون لفها في قطع الاوراق ليدخنوا منها متداولين .

وضاق ـ الابرش ـ لا يطيق قسمته القاسية في رحاب ـ جوقار ـ لا يرجع عنه سلام كانه امراة ضعيفة بين المساجين. واطاع ما يهمس به نمرود كل ليلة مستفزا مثيرا الى النجاة او

الموت . الحكم الباطل يهب رقاب السيد الصناديد الى جبناء ، يسومونهم العذاب ويدوسون رجولتهم ، كانه لا مجرم مستقطع في البلد غير هؤلاء العتاة ، يهدون الجبال ، يدرسون الرمل يفتون الحصى ، ولا ذنب لهم في الحياة ألا باسهم وغيرتهم على على الحق الصارخ ، الحق الذى يعامل فيه الكاهية من ينتفع من معاملتهم ، يرجح فيه ـ المراقب ـ كفة من يشاء ، ويغمطه القاضي في دار شرعه ، هذا الحق الذي يترك الناس اعمارهم حفاة عراة .

عاد النهار ووقف المساجين بين اكوام الرمل واكداس الحصى يرصون بالاقدام ويحكون بالاكف . وتراخى الابرش كانه لا طاقة له . ولسعه سلام ينشطه ، واحمرت العيون حوله كانها لا تحتمل هذا الصلف وتعلل الابرش بالمرض وصرخ السجان مزمجرا يدعوه ان يتدبر حيلة اخرى غير هذه التي يعرفها ولا يقبلها .

وجلس ـ الابرش ـ متمردا كانه يتحدى الاوامر السخيفة في القفار الخالية واحتد سلام لا يتسامح ازاء عصيان الوغد اللئيم وانهال يصفعه بالسباط فوق وجهه . وتماسك الابرش كانه ينتظر رد السجاجين . وامعن الضابط يضربه لا يكف عنه قبل ان يعود الى عمله وتبرا منه ـ الابرش ـ صامدا كانه لا يحس ضربة ق وارتد المساجين وقوفا كان الضرب في اجسادهم . واحمرت عيون ـ نمرود ـ كانه يهم بالانتقام من رجل شاء المكتوب ان يحكم في سيد الرجال . واستبلس ـ سلام ـ عن الابرش الذي سال دمه واحمرت عيناه الواسعتان

تملؤها الدموع كانه يحمل فيها عذاب الحياة من يـوم راى الدنيا يستبد في حكمها سلام . وانقلبت بشرته زرقاء داكته وعيل صبره لا يرى هذا الرجل امامه الا في حكم ضربة واحدة من جمعه او دماغه .

وابى ـ سلام ـ ان يكف كان حياته في جوقار ـ علمته ان يجابه المستقطعين باشد وامر ما يجابهون النـاس فـي الدنيا . وتذمر ـ الابرش ـ يرده عن غيه كانه غريمه الوحيد بين جميع المساجين القائمين في حك الرمل وقت الحصى ، لا يجني منها باي او كاهية ، لو اقامت امتهم احقاب السنين في حك الرمل وقت الحصى بعد خدمة الحلفاء جبائل وشـرائط وبيعها الى اليهود كدا تبيع النساء ويشترين عند ـ درابة ـ كل بضاعة بالشوالق ، ولا يلبثوا ان يشتروها حريرا وقماشا كما يشتري المتاجرون ـ البنوات ـ لاقتناء الدقيق والسكر .

وعاد ـ الابرش ـ الى العمل لا يرى ان ينتهي النهار دون ان يصيب ـ سلاما ـ العنيد بما لا بد ان يصيبه لو مات تحت السياط او الكهرباء . وتذمر اصحابه مغمغمين من هذا القهر كانه لا معبود عنده بينهـم جميعا غيـر ـ الابـرش ـ المسكين وهمس ـ نمرود ـ ان الحساب معه الليلة او غدا لا يفوت فيه ركلة واحدة في المقاتل . وضرب ـ سلام ـ سياطه في الفضاء مناورا وانكب المساجين يحكون الرمل ويفتون الحصى .

واذن وقت الطعام وتمـدد العاملون يـردون النفـس ويلتهمون قطع الخبز الجاف واستسلم ـ الابـرش لا يمـس نصيبه قبل ان يرد ما اضمر ان يرده في ساعن او في اخرى .

ووقف ـ سلام ـ ينتظر ان تدق ساعة الحارس الذي يعوضه في حصة المساء اياخذ راحته وتهدا اعصابه المنهارة ـ ولم يلبث ان صفر يدعوهم الى عشيتهم الطويلة الشاقة .

وتكاسل ـ الابرش ـ ودمدم ـ سلام ـ وتلدد السجين متعمدا . وضرب السجان السياط مهددا . وانقطعت حركة المساجين واخرست اصراتهم ، يكاد صمتها ان يقذف صاحبهم ليمزق هذا الجبار او يفته كما يفتون الحصى . وانقض ـ سلام ـ منتقما وطاطا ـ الابرش ـ كانه وهب عنقه ليستريح من حياته وطاطا المساجين يائسين كان صاحبهم لا اثر للرجولة في نفسه .

واستبد ـ سلام ـ ضاربا واستسلم ـ الابرش ـ صامدا لا يقيله الحاكم في جوقار ـ ووقف ـ نمرود ـ متوسلا اليه ليرحم صاحبه المريض وصفعه ـ سلام ـ يرده الى عمله وانقض ـ الابرش ـ يصيب الحارس الجبار في دماغه ويقبضه بين سواعده حتى طرحه واستوى فوق صدره راكلا . وارتبك المساجين يريحهم القصاص لو كانت عاقبته الرصاص . وداهمهم حارس العشية ينقض على الابرش فوق صدر ـ سلام ـ ويغرز اصابعه في اعينه حتى استرخى مستسلما مشفقا .

خيم الصمت والتهم المساجين عملهم دون كلمة واخذ الجلادون المارد الماكر في قيود السلاسل الى السجن حيث لا يرى شمسا ولا وجها . والتف الحاكمون في جوقار يكاد ـ الابرش ـ ان يذهب فتاتا بين ايديهم لا يتركون له حياة

ليحرك يدا او ساقا او يحمي وجها من اللكم والركل او يدفع عن جسده الصك والرك .

وططا العاملون ، يكاد اشدهم باسا ان يسف الرمل المنثور خوفا من قيود السلاسل ومضاعفة اثقال الخلاخل التي يعرف جميعهم انها لن تفك عن ـ الابرش ـ الا اذا طاب خاطر ـ سلام ـ وغفر كما يغفر لهم جميعا كلما اتفق بينهم ان ـ جوقار ـ مقبرة يدفنون فيها احياء عاملين وامرين لا فرق فيها بين من يفت الحصى او من يقف له حارسا معذبا .

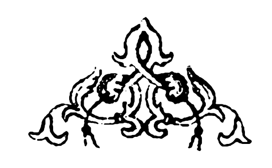
ورزح ـ الابرش ـ في الاغلال لا تاتيه اللقمة اليابسة او الشربة العفنة الا كما تؤتي الكلا بالجائع من بقايا المزابل . واحس ـ نمرود ـ ان حياة ظالمة لا يصبر على جبروتها عتاة الرجال لو كانت عاقبتها الموت وما ـ سلام ـ هذا الذي يقف منتفخا غير حصاة يفتها ـ نمرود ـ في ضربة كف ... سوف يزن له الضربة ... ويكيلها اليه متى دقت الساعة ... في ام راسه ... لن يرده سياط ـ سلام ـ ولا طابور من العسكر ... لا بد ان ينفذ ويرى السوق ... ينزوي ... لو عاش العمر مختفيا او متنكرا .

وتراءت الطريق شاقن امام ـ نمرود ـ محفوفة بالاخطار لا امل ان يقطع المسافات الطويلة دون ان تلاحقه اشباح ـ جوقار ـ او كلاب ـ سلام ـ تقتفي اثره وتشيع خبره . واهتدى انه لا بد من الرصاص ليذب عن نفسه ويقتحم الطريق امنا لا يتردد ان يمزق حتى صاحبه ـ الابرش ـ اذا تخاذل وتراجع واقرب سلاح ؟ ... هذا الذي يتهدد رقابهم في كل

حركة دون ان يلحقهم باذى ...

وتربص ـ نمرود ـ ساعته ما دام بين المساجين كاسلم رجل لا يروم العراك واطوع ال ـ جوقار ـ لا يتعنت ولا يتلدد حتى كانه من عباد الله الابرياء ارتمت التهمة في عنقه لا سبب لها غير صلته بالابرش المتمرد .

وبات ـ نمرود ـ ينتظر ساعته ويزن ضربته لينجو مع صاحبه مقتحما طريقه بالرصاص الجبار لا يطمع ـ سلام ـ ان يلاحقه دون ان يمزقه اشلاء تزقها الطيور قبل ان يحل بين جوانب السوق ويختار مخبئا امينا لا يقربه كاهية ولا يهتدي اليه شرطيون . ويكتم سره اهل السوق لا من يعرفه ولا من يرد خبره كانهم دفنوه وغسلوا ايديهم على قبره من سنين مضت وانقضت بالدقيق والسكر وزيت الكاكوية ، وابتلعت في جوفها الجرب والحكاك والحمى ، وقذفت ـ الحشائشي ـ وراء المقهى وغمست ـ لامينا ـ في ثروة ـ جلاردي ـ يكاد ان يزاحم اليهود والنصارى على شراء ـ سوسة ـ بماءها وترابها



17

خرج الله – الحشائشي – من سجن – بابا الاخضر – بعد ما دفع ثمن الظن الاثيم . وعاد يظفر جريد النخل في ميعاد الحانوت ، يلعن – ابليس – الذي وسوس اليه ، ويسهر الليل مع اصحابه يلعن – بوصنانة – الداهية الذي ابتلع امراة كانها لم تدخل عنده ساحة راها لا شك ولا ريب .

وجاء الخبر ينعى اخاله منقطعا الى الاتجار في بلاد الغرب ، لم تكن السوق تراه ولا يرى فيها عياله الا اذا خطر ان يعود اياما وينفق حاصيله في شراء الزيتون الذي لا رزق عند اهل البلاد دون مكاسبه ، حتى اذا لم تكتب حجائجه في دفتر العدلين الجليسين مذيلة بالخنافس ما دام الحوز والتصرف اثبت من كل كتابة .

وشاء الله ان يؤتي – الحشائشي – من هذه الثروة ، لا خنافس ، ولا حوز او تصرف يشهد به الناس غير جلوسه وسط اله وذويه ، تلفهم برانس الصوف ، وتفيض عيونهم بالدموع امام المعزين المترحمين الذين لا ينقطع ترددهم بالطعام والمجانسة قبل ان يتوارى شبح الموت وتتجدد الامال بالحياة .

وتقضت ايام العزاء ثلاثا بعدها ثلاث ، لا يرجع اهل السوق والاجوار عن حصير – الحشائشي – ابدا يعضمون

مصيبة الموت ، يترحمون على الفقيد ، يوصون لابناءه من يعوضهم ابا حنونا ولا اقرب اليهم من عم بابه في بابهم ودمهم من دمه .

وشمر ـ الحشائشي ـ ليقف في حق اليتامى المنكوبين وابس الجبة النظيفة مترددا بين دار القاضي وحانوت العدول لاجراء الوصاية الشرعية ومواجهة شؤون القاصرين في عش اخيه ، كان امهم تنتظر ان يموت ابوهم وتختار غيره ، لا تبتلعه السنون ولا يفارق داره .

وجلس ـ الحشائشي ـ في مقهى ـ عمار ـ نظيفا كما جلس ـ لامين ـ في مقهى ـ جلاردي ـ حاذقا امينا . وخر ـ اسحاق ـ يقدم اليه القهوة كما يقدمها لاصحاب الغروس والحقول ، تعجبه جبته من الحرير الفاخر كان اقراص وشيها من جبة الشيخ القاضي في دار الشرع . وتقرب ـ الحاجة يبدد ما تراكمت به الايام بين اخوين في الدين وجارين في السوق وقريبين في الدم وتردد ـ لامين ـ يحفز صاحبه الى اسواق اليهود في سوسة ـ لا من يراه ولا من يحسب له ولا من يشي به حقا وباطلا ، شان الناس في متاع الناس .

واقام ـ الحشائشي ـ في سوق الباد بين مقهى ـ عمار ـ وحانوت العدلين الجليسين حتى استقر وصيا امينا على اليتامى القاصرين ووكيلا متدبرا قائما في شؤون اخيه الفقيد ودفعه ـ لامين ـ أن يتزوج الارملة المحرومة ويكنف عشها من الضياع والشتات ويفوز بالثروة في يده لا من يضايقه ولا من يحسب عليه .

وجد ـ الحشائشي ـ كان الراي عند ـ لامين ـ لا يصيبه حتى ـ جلاردي ـ ولا يشتري بالمال . وتقرب من الزوجة المنكوبة لا يعي هدير ام البنين والبنات في بيته وامتناع الارملة التي هجرت دارها لا ترض به لو قضت العمر هزياة حقيرة لا رزق لها في الدنيا .

واشتد ـ الحشائشي ـ يبذل الوسائط مغريا واشتدت الارملة كافرة لا تقبل زواجا حتى من كاهية لو وهب لها ـ دريبته ـ نقدا ورزقه منها حنة ، ولا حتى من الشيخ القاضي لو اعطاها مال الدنيا ووعدها بالجنة . واكتفى ـ الحشائشي متوسلا ، يمتص من متاع اليتامى ويذب عنها جزيئا متبرءا من كل ذنب ما دام الله قد اوصى بهم خيرا ووعد القائمين في حقهم جزاء الدنيا وثواب الاخرة .

واشرقت الايام وانعمس ـ الحشائشي ـ في الحرث والحصاد ومكاسب الغنم والبقر ، رصيده فيها رصيد صاحبه ـ لامين ـ من دواليب ـ جلاردي ـ وانقلب اهل السوق يحسبونه فوق ـ عمار ـ المدمن على مجالس الشراب والقمار واقبلت الايام على اهلها تغمرهم بالرزق والنصيب لينفقوا عيالهم ويصلحوا ما افسد الزمن من امورهم وياكلوا اللحم اللحم في غير المواسم ويلبسوا الخز ، شان الاغنياء والمترفين .

وعاد اهل السوق جميعا يلاقون صاحبهم كانه من اهل الدريبة والمشائخ المهابين ، تزيدهم الجبة وما يتبعها وقارا ويضفي عليهم المال جاها وعفة واضحى ـ الحشائشي ـ يتكلم

مع المتكلمين بالمواشي وعدد العاملين في الحرث والحصاد بالخمس ، شتاؤهم كر وذر ، وصيفهم جر ودر ، البرد يلسع جلودهم ، الحر يكوي بشرتهم . وبات يحسب النعاج بالرؤوس ، وما يلزم لرعاتها من ايناث عن كل قطيع فات عدده العشرين ، وما يلزم لها من فحول الاكباش المختارة .

ومكث ـ الحشائشي ـ يعد المال بالمكاسب ومحاصيل القمح والزيت والصوف وانضم اليه ـ لامين ـ يشاركه في دواليب الحرث والحصاد وشراء حب الزيتون من وكيل الاحباس باقل ما يشتري ـ درابة ـ الشوالق . ودفعه وراءه في طريق ـ سوسة ـ ويهودها الذين يكيلون الاموال اكياسا ويزنون النقود قناطير تشحن البواخر وتملا العمارات .

واشتد ـ الحشائشي ـ حريصا على عيال اخيه ، ينفقهم من حيث ينفق اهل داره ، كانه لا يهون عليه ان يضيع اليتامى امام عينه دون ان ينتشل صباهم من الخصاصة والبؤس ما دام الله الذي لا رب سواه قد ساق اليه من حيث لا يعلم ولا يدري . واشفقت زوجته تمد من جرار بيتها ما يلزم لمونتهم ونفقة عيشهم ولا تدخر جهدا ان تساعد ال زوجها الذين اصابهم الدهر في ابيهم بعد ان عاش منقطعا وملك زيتونا لا رجاء منه وشارك قوما اكلوه لولا وقوف سي ـ الحشائشي ـ اخيه وقدرته على انتزاع مال اليتامى من عرب بدو لا دين لهم ولا مذهب .

واقبلت الدنيا بالمواشي والاغنام والدواليب والخيل دون ان تسوق الى صاحب الرزق والمتاع . وكاد ـ عمار ـ ان

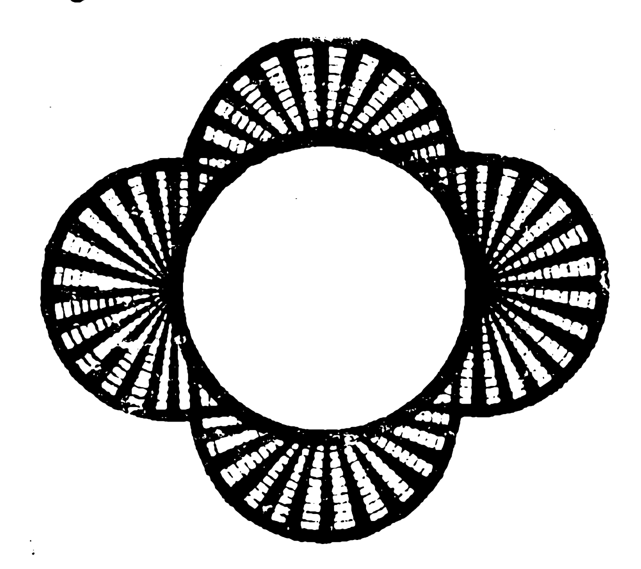
يهب المقهى مرتميا في خدمة ـ الحشائشي ـ كان البخت اختار جبارا لايد فيه لاحد ، شان الاوراق الثلاثة في حاقة القمار ، لا سبيل ان تطالع اللاعب الا بما شات ان تطالعه ليغلب اللاعبين معه حتى باوراق ـ الحشيش ـ الخضراء او مجموع اعداده الضئيلة ويجمع اكداس النقود ، يخاله الخاسرون اغنى من القائمين في الحرث والحصاد ، ابدا هم يشقون بطن الارض ويردون ترابها بالبذر ، ويتعهدون زرعها بالحش ، وينقطعون الصيف والخريف بين الحصاد والدريسة والتصفية ، ولا تفوت محاصيلهم منها ما تغدق اوراق ثلاثة في رمشة عين ، كلما شاء البخت ان يحلق بهم في فضاء الثروة ، ولا يلبث ان يمسهم النحس بامر ما يمس المنحوسين حتى كانهم افقر من ـ درابة ـ ابدا ينادي صوته المدفون في صدور الناس ، يبيع

وتبرجت الايام العشار تدفع الثمن ثمين وترد الشاة ويشتري لا يربح ولا يفلح .
شاتين حتى كاد ـ الحشائشي ـ ان ينقلب شابا يلج باب الحياة المليئة بالاحلام الناعمة ، لا يختار منها غير زوجة صبية غضة ، لا تضاهيها ـ فافاني ـ قد اوعينا بعد ان ولى عنه شبح ايامه المرة التي قضاها بين الليل والنهار مخدرا ـ مزطولا ـ ، كانه لا مال ولا عيال ولا فرق في الدنيا بين فقرا وغنى ولا بين جوع او عراء ولا حتى بين موت او حياة اذا كان ثمة فرق بين من يدركهم الموت في غيبوبة المرض وبين من يعيشون مخدرين لا يمسهم ظل القمر دون ان يقولوا بحيرة راكدة ولا يصبح الديك دون ان يردوه حمارا ناهقا .

وتالق نجم ـ الحشائشي ـ بعد ما اصلح المال ما افسد

الحشيش وغطى الغنى ما فضح الفقر واشاع الرزق ما حجد العسر . وعاث ـ اسحاق ـ يتمسح وسقط ـ الحاجة ـ يتقرب من رجل اطلق يده مبسوطة ، شان الاغنياء لا يجلس قبل ان يملا قفته من كل شهوة مختارة ومن كل ثمرة يانعة ، ولا يعود المساء دون ان يبذل في شراء الفواكه والحلاوي ، ولا يجيء الليل دون أن يرافقه اصحابه في خطواته الى بابه يغمرونه بالود ويتزافون بالنصح ، ابدا يضعونه في كل مرتبة ويزينون به كل صف ، لا ينقصه ان يتزوج عروسة من بنات الوقت .

وتراءت سماء الدنيا الجديدة يحاق فيها ـ الحشائشي ـ بالجبة الانيقة وتنفح فيها العروسة الغضة ويرقص بها المال الجبار فوق رؤوس الناس ويحفظها الرجوع الى الخالق واداء الحج الى بيت الله الحرام من كل الشبهات يستقر مبرورا خلع ثوت الدنيا ولبس ما يجب للاخرة امراة ناعمة غضة ترد الشيب شبابا وحجة صادقة تمحو الذنوب وتفتح باب التوبة



استلقى ـ الحشائشي ـ في فراشه وتزاحمت الاحـلام في خاطره تتراءى كانها جنات نعيم . ونامت الاكوان حالمـة لا يشوبها عالم الفناء بما يشوب احلام الناس الكاذبة .

وقاطع دق الباب خفيفا لا يخاله رب الدار الا هاتف من الخيال ومضى سابحا في عالم بعيد حتى عاد الطرق مسترسلا ونادت زوجته خائفة مرتبكة ، ودب هو لا يتمالك ان يسترق الخطى ويرهف السمع متشمما رائحة الطارق .

وتردد حينا طويلا متلبدا لا ينتظر ان يناديه صوت هامس يعرفه ولا يتذكر صـاحبه . ووقفت زوجته خائفـة من غـدر الاعداء . والح الدق والهمس واوجس رب الدار ومد خنجره وتسلحت زوجته بالفاس .

واقترب ـ الحشائشي ـ من الباب يسترق النظر متهيبا دون ان يرى غير ظل مريب في ظلام الليل الكثيف تمتد يـده في حلقة الحديد بالدق الرقيق . ودنا رب الدار تساوره الشكوك وانس من شق الباب فاحصا في وجه الطارق المريب . والح الصوت هامسا يدعوه ان يفتح الى قريب من معارفه . وانكر ـ الحشائشي ـ نبراته الغليظة خائفا ان يقع في كارثة . واجاب مهددا بالصراخ ليخرج الناس عاريا ولابسا .

وتوسل الطارق يرجوه ان يفتح لقـريب من معارفـه . ومانع ـ الحشائشي ـ لا يفتح بابا ولا يرد جوابا قبل ان يعرف صاحبه القريب وتهدج صوت الرجل متحسرا كان الايام محت اسماء السيد الصناديد من شماء السوق حتى اضحى صوت

ـ نمرود ـ لا يفرزه . الحشائشي ولا يجيبه اعـرف النـاس بنبراته .

وتلكا رب الدار مرتبكا كانه لا يصدق ان يقتحم ـ نمرود اسوار ـ جوقار ـ ويدرك السـوق سالما وامـر امراتـه ان تزجع الى غرفتها ودفع ـ نمرود ـ الباب حتى كاد ان يرفعه فوق ذراعيه يحطم به صاحبه المتثلقل ، كان اثر التكروري في راسه رده يهاب طرق بابه في الليل . واهتز ـ الحشائشي ـ مرتعداً يفك قضيب الحديد الثقيل ممتقعا لا يرى عفريتا جبارا غالب الموت ونفذ من القبر واخترق الحواجز غير هذا العنيد الخطير .

ودخل ـ نمرود ـ ترن في ساقيه خلاخل الحديد وقيود السلاسل حتى كاد رب الدار ان يسقط مغشيا وامسـك بـه صاحبه يكاد ان يستسـل ذراعيه واجهش متوسـلا ضارعـا يدعوه ان يكتم سره مهددا ان يقبض روحه اذا تلاشت كلمة .

وجلس في السقيفة يبوح اليه عن فراره مع ـ الابرش ـ وشج راس ـ سلام ـ بالقدوم واقتحام الجبـال والوديـان بالسلاسل والاثقال ترن كانها جلاجل البغال السميكة تجـر العربات المشحونة وتذمر الحشائشي مشيرا الى ـ لاميـن ـ صاحبه المنغمس في خدمة ـ جلاردي ـ احد ركائز الدولة في سوسة وفتح نمرود فاه فاغرا ، يطيـب له ان تقبـل الدنيـا الرخيصة على اصحابه ويجد متسعـا ليعيش مختفيـا مـع ـ الابرش ـ الذي تركه مندسا بين الطوابي القريبة .

وهال ـ الحشائشي ـ ان يقع في مازق لا مخرج له منه الا اذا طاطا ساكتا واعطى مسرفـا . واستلقى نمـرود فـي السقيفة الامنة يحدث ربها كل حديث عن سنين طويلة شاقة ، حتى يفتح الله بابه ويبدل ساعته .

وهجم الفجر وخرج ـ الحشائشي ـ يدفن ـ نمرودا ـ في الزريبة قبل أن يدق باب ـ لامين ـ ليتدبر خطته ويلعب ادواره وتضاحك صاحبه مستشرا ان يبعث الله من ينفع الناس بارهابه وجبروته . واعترض الحشائشي يقرا كل حساب لهذا الرجل اذا علم به حتى اسحاق او الحاجة ولعن ـ لامين ـ كل ظن يشير ان نمرود والابرش اغلى من مكاسب الرزق واحد من سلاح المراقب . ومانع الحشائشي لا يريـد ان يركـب هـذه المخاطر بعد ان رزقه الله وتاب عليه ، وتضـاحك صاحبـه مستخفا ان الامور عنده في شان نمرود والابرش لا خوف عليه منهما ولا خوف عليهما في زريبته . وعـاد ـ الحشـائشي ـ الى مواعيده بين أهل السوق ، يجلس ازاء مائدته وتتهاطـل عليه التحيات ويتزاحم حوله الجالسون يطالعه ـ اسحاق ـ بالطبق وشنتى الاخبار يبايعه الحاجة بكفه، ويتقرب اليه عمار بالحديث وتفتر شفاه المدامة بالابتسـام وتتخاطفـه العيـون بالخواطر .

وتقلص النهار يكاد رب الدار لا يرى شمسه او يحس ظله . ومزقت سيارة الشرطة كان سبرا هاما فشا في السوق وجمد ـ الحشائشي ـ خائفا مرتبكا من عاقبة ما تكتم الزريبة ، لا مخرج امامه الا ان يهدى الله ـ لامينا ـ وياخذ في حوزه وتصرفه من هو اغلى من مكاسب الدنيا واحد من ـ سلاح ـ

المراقب ... وتقرب ـ اسحاق ـ متشمما سر السوق وتـرك الحاجة المجمرة متطلعا ، وتمسح ـ عمار ـ يراود الى حلقة القمار وسهرة المرح . وامسك ـ الحشائشي ـ صامتا مشتتا حتى خيم الليل وقام في طريق المسجد يدخل من باب ويخرج من اخر ، هاربا من باب داره ينتظر ـ لامينا ، لا سبيل ان تتحرك اليمنى او اليسرى دون اشارته .

ووقف ـ الحشائشي ـ الى ساعة العشاء ، يلعن في خاطره ايام السوق ومن عرف فيها قبل ان يموت اخوه وتسوق الدنيا نصيبها . وقدم ـ لامين ـ متافقا متضايقا من ضيـاع النهار دون ان يجيء دوره في صاحبه ، ـ جلاردي ـ لكثرة حرفائه وشركائه وعملائه . واعترض ـ الحشائشي ـ طريقه يكره معه قبل اي شيء ليريحه من حمله . وتضاحك ـ لامين ـ يدعوه ان يتماسك حتى لا يفتضـح الامر ويحس النـاس . واجهش ـ الحشائشي ـ متهدجا انه لم يدخل دارا ولم يذق طعاما ما بقي هذا الخطر يحدق في جوانبه ومشى معه لامين مستخفا من جبنه كان نمرود او الابرش الغام تنفجر دون ان تمسها يد . وتذمر ـ الحشائشي ـ متبرءا من كل اثم لا يرغب في غير حجة مبرورة بعد عروسة غضة . وبصق ـ لامين ـ محتقرا الجبة التي صبغته بالتقوى حتى مع من يعرف من اين ماتـاه ولا يـراه الا اقطع مـن ـ نمرود ـ واطمـع مـن ال الدريبة ... وسكت ـ الحشائشي ـ كان الابرة غرزت عينه لا تدع له ان يتفص او يماطل مع من امسك الحيل ونفذ الـى التدبير .

ودخل لامين يستقبل نمرودا على الرحب والسعة ويفتح

في وجهه ذراعين واسعتين ليحتمي لا تدركه يـد الكاهية ولا تجسس الشرطة واعدا ان يدسه في دواليب ـ جلاردي مـع صاحبه ـ الابرش ـ وهدا نمرود ـ مطمئنا وتنفس الحشائشي مستبشرا بعد ان فتح الله وهدى لامينا من هديه ووقف لياتي بالطعام يبارك نجاة صاحبه وظفره براس سلام ... واقسـم لامين ان يكون عشاء الليلة في داره واحتج رب الدار يعيب هذا الاعتداء على حقه في الضيافة ودفعه لامين أمامه ليتلصص الخطوات ويجوب في طريق مامونة .

تسلل الاصحاب الى حانوت ـ لامين ـ ازاء باب الدار يتطارحون الحديث ويقيمون الراي متفقين على قيـام الليـل واختفاء النهار بين مغـاور الكهوف في الجنائـن القريبـة . واستقر بينهم ان يستقي ـ الحشائشي ـ كل خبر مريب فـي السوق وان يترصد ـ لامين ـ كل عين ماكرة ويقضي نمرود مع ـ الابرش ـ قضاءا مبرما لا رجوع حتى على الكاهية اذا خامره ان يفضح سرا او يحاول اشارة .

وطالت السهرة الى ساعة الفجر في الحانوت المغلقـة واطاع ـ الحشائشي ـ مستسلما ، لا مفر لـه ، اذا اراد ان يامن من شر هذين الرجلين بعد ان فتح ـ لاميـن ـ صـدره مخاطرا بحياته كانه اصاب خطة جديدة لا يدرك مداهـا ولا يجني ارباحها غير من يحوك الخطط الدقيقة ويبذل المال لشراء الرجال .

واجه ـ الحشائشي ـ باب المقهى ازاء مائدته واحتدمت حركة السوق ، لا ينقطع باعة الاقراص ينـادون الى قفـاف

الخبز والفول المقلي والحلاوي ، متنازعين مقاعدهم في البطحاء الواسعة متجاوبين باصوات مختلفة بعد اصوات الصباح بين الشوارع والازقة .

وجاء ـ عمار ـ يفرك عينيه من اثر السهرة الطويلة في حلقة القمار التي لم يعد يربح منها ليلة ويتعته الغنى ، حتى يخسر فيها ليال متتابعة ويحرقه الفقر والمضض . وتردد ـ اسحاق ـ بين الدريبة والحوانيت . ووقفت ـ المدامة ـ كانها شبح مضمحل . ونفخ ـ عمار ـ كان خسارته تضايق راحته وترهق اعصابه وتاذف ـ الحشائشي ـ لا يريد ان يستذنب بالسمع وسط الابقين مستغفرا منيبا .

ودق الطبل تسبقه المزامير ، كان موسم الاعراس اذن في البلد قبل موسم الحصاد . وارهفت المسامع كان الدوي يدركها قبل معرفة الطبال والزكار واهل العروسة ودار العريس ـ وتقرب اسحاق مستخبرا لا يعتقد ان خبرا يفوته الا اذا كان اصحاب الفرح من الشوارع البعيدة ورجع مشرقا يضع الطبق وينادي ـ الحاجة ـ الى عراك الجمال وراء طابية الابل .

وتسابق الناس وراء الطبال يشوقهم مشهد الجمال المتعاركة ودق الطبول والمزامير تملا النهار ارتياحا وحبورا . واعجب ـ الحشائشي ـ ان يشاهد الجمال تتعارك بعد ان امسك عنها الناس كان الرجال لم يبق فيهم من يقف بين جملين هائجين ، تتطاير رغوة الريق البيضاء من القلة الحمراء فوق شدقيهما ، وكم كتب التاريخ من اسماء السيد الصناديد لا يغلبهم ان يفكوا العراك بين الجمال الضارية بذراع في عنق الغالب ترده

جبانا مستسلما .

وتهاطلت اسراب الناس على طابية الابـل وازدحمـت افواجهـم وتدافعت صفوفهـم بالكبار والصغـار . ووقـف ـ الحشائشي ـ بين ـ الحاجة ـ واسحاق ـ ينتظر جميعهم بالضجيج والصراخ احتدام العراك ووقـوف من يثـق فـي سواعده وقوة جاشه حكما يفصل بين الدواب الهائجة .

وبدات الجمال تضرب بذيولها بين افخاذها طالبة النزال واشتد رغاءها كانها تناور اشباهها متحدية . واحتدم الطبل والمزمار يزيد هيجانها ويضاعف هديرها ورغاءها . وغصت البطحاء وحمي الصراخ والضجيج .

والتقى الجملان تشتبك الاعناق وتتناطح القوة العنيفة وتتضارب الكوارع المتكاثفة . وخيـم الصمت انـا وتدافـع المتفرجون وتطاولت الاعناق كانها ازاء مبارزة الرجـال فـي حفلات الاعراس . واشتد الرغاء كانـه عويل ثكالـى علـى اصارها . واحتدم الضجيج والتصفيق وابى الغالب ان يرجع عن المغلوب . ووقف ـ شوشان ـ يلوي عنق الجمل المتمرد وسط الهتاف والصفير وانهال اعوانه بالاعمدة يقامون الجمال المتمردة لتخلو الساحة الى دور جديد ، لا يقضي فيـه غيـر ـ شوشان ـ المستبسل يلوي اعناقها كانها دجاج .

وتتابعت الجمال يمزق رغاؤها في فضاء البطحاء واشتد دق الطبول والمزامير يملؤ افاق البلد كانه بوق الخطر يدعو الناس من كل صوب ، وضاقت العشية لا يرجع المتفرجون عن

مشاهدهم المريحة وما تبذله الابـل من الحيل والمنـاورات امرها بين الناس عجب .

واذن الليل وتراجع ـ الحشائشي ـ مع ـ اسحـاق ـ و ـ الحاجة ـ يكاد الضحك ان يخرج صهما عن عالم الوجود وتكاد الخواطر التائهة ان ترد البعائر انسا يمكرون ويتخادعون ويتراوغون .

وقهقه ـ الحاجة ـ تفيض خواطره طيبة نقية :
... مفتاح الربح زور واحتيال ... حتى عند البعائر ... لا ترى الجمل فر حتى يشب كرا ...
واستغفر ـ الحشائشي ـ متافقا :
... باب جهنم ... بئس المصير ...

وقاطع ـ اسحاق ـ لا يقصد احدا :
... ما عرفت بابا من ابواب السوق او مفتاحا من مفاتيحها او قائما في حق الابواب والمفاتيح لا يراوغ ولا يمكر ... الزور باب الربح .

وسبق ـ الحشائشي ـ لا يرغب في هذه المحاورة الثقيلة وتضحك ـ الحاجة ـ يزتدري صاحبه كانه بدل رايه :
... انت تعرف الابواب والمفاتيح او تفرز بين الحق والباطل .

وتهكم ـ اسحاق ـ متعمدا :
... الحق مر ... كلمة حق خير من الف باطلة ... حتـى الناسك المتعبد اذا خلع ثوبه وكشف طويته راى بعينـه فـي

اعماق سره مفتاح الزور يلج الابواب كلها ...
وامتقع ـ الحشائشي ـ يلعن هذا الحكم الجائر :
... الله اعلم بما في الصدور ... امر الله يقضيه الله ...

وتخلف ـ اسحاق ـ مع ـ الحاجة ـ يتحاور ان متضاحكين في عراك البعائر وصراع الوجود وهب ـ الحشائشي ـ لا يسمح لنفسه أن ينحدر الى حضيض يرزح فيه الكلبان من يوم جمع بينهما المكتوب اثنان لا ثالث لهما فوق سطح الفرناق ، وجاء ـ عمار ـ يغمرهما بالقسمة والنصيب ولا يظنهما يتركانه قبل ان يعيثا فيها الفساد ويستوي جميعهم مفاسين .

وجلس ـ الحشائشي ـ يتعشى لا تنفك زوجته تملاء مسامعه باقاويل زوجة اخيه ونبيحها وراء رزق ابناءها اليتامى الذي لا تنقطع تجري وراءه ظالمة متعنتة وتشوه سمعته بين الناس ونفخ رب الدار يلعن هذه الارملة التي رفضت ان تتزوجه وتكف عنه لسانها حتى بعد ما اصاب من متاع الدنيا وتحدث عنه الناس وشهد به البدو والحضر .
وقالت زوجته متاثرة :

ياودي ... بنت حرام ... بنت حرام ... كلب مكلوب ... تدعوك الى الله ... تقطع شعرها داعية بالعمى وطول العمر ...

ودفع ـ الحشائشي ـ وعاء الطعام يسب امراته :
... كفى ... لا تجدين غير هذه الساعة ... ما اقل

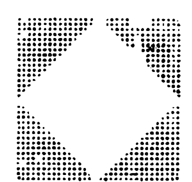
حياءك ... انت طالق ... اغربي عن وجهي ياخبيثة ... كانك تشفقين عليها وعلى ابناءها الشياطين .

تراجعت الزوجة واشاح ـ الحشائشي ـ ثائرا متحاملا ودق الباب دقا عنيفا انبعث اثره صوت ـ لامين ـ مناديا كان هنالك امر لانشان فيه لحرث او حصاد الا ما هو شان ـ نمرود ـ والابرش في يوم احرف . وخرج رب الدار مضطربا لا يروم ركوب الاخطار التي يتكالب عليها صاحبه لا يرتدع ولا يرضى بما ساق الله من رزق ومتاع .

ومشى ـ الحشائشي ـ مع صاحبه ـ لامين ـ الحديث بينهما همس واشارات حتى ادركا مخزن الشارع ازاء باب الدار وانتظمت السهرة مع ـ نمرود ـ و ـ الابرش ـ يتدبرون الخطة الامينة ويقيمون الراي الصواب لتستقر الحياة في الخفاء كاحسن ما تسير حياة الناس في العلانية . واختار ـ لامين ـ ان تسترسل الايام في طريقها بين الكهوف والمغاور وتزدهر لياليها بالسهرة قبل ساعة الرزق لمن لا رزق لهم في دنيا الناس وحومة النهار . وقهقه ـ لامين ـ يريحه سلاح المال والرجال الذي لا يثبت امامه كاهية او ـ مراقب . واتقدت عين ـ الابرش ـ كانه يريد ان يبدا ليلته غانما ظافرا بعد ان اقتحم اسوار ـ جوقار ـ ومسك ناصية البلد باعا وذراعا ..
وطابت السهرة يشع فيها الحديث بالمال والاعمال وقام ـ نمرود ـ يتخطى في ظل الحيطان الواجمة وتبعه الابرش يجيل عينا ماكرة بين الدور المستسلمة ، واقام المخزن باهله تمتليء خواطرهم بالاحلام العشار التي لا يطمع الساهرون في مقهى ـ عمار ـ ان تسوق منها رياح البخت ما تسوقه مكرهة

الى رجلين لا ثالث لهما بين رحاب السوق في الكسب والمتاع والمكر ودهاء .

واشرقت الحياة بالامال العريضة وزهت ازهار الرزق بالمكاسب المتراكمة . واستقر - لامين - يمتطي رقبة - جلاردي - امينا مطاعا واستاثر - الحشائشي - يمتص الرزق من متاع اليتامى وتبرجت الاحلام وتضوع بخورها منعشا مريحا يخامر - الحشائشي - بالزوجة الغضة اذا كتب الله ان يتزوج عروسة شابة تتراءى له كما يجب ان يراها ملاكا فاتنا وطيفا ساحرا ... طويلة سلسة ... لا هي بدينة ولا هي نحيفة ... ولا هي بيضاء باردة ولا هي سمراء داكنة غراء فرعاء مصقول عوارضها فتحت عينيها في الرخاء والنعيم واطلق صوتها بالكلام العسل تحت لسانها ... الحرير لباسها وفاكهة الحمص والزبيب طعامها ... ماء الزهر شرابها ابدا هي غضة وارفة تعيد الشباب وتنفح الحياة .



18

مكث ـ الحشائشي ـ يطالع نهار السوق منصرفا وراء شؤونه يسعى سعيه ويتلصص اخبار الناس ويتجسس اسرارهم . ويعود به الليل الى السهرة مع لامين ورجليه في مخزن الشارع ازاء باب الدار ليجس الحديث نبض السوق يقيس الصغيرة ويزن الكبيرة ويقرا كل حساب .

وتواترت اخبار السطو على الدور كل ليلة كان عصابةضالة باتت تترصد اهل البلد ، لا تداهمهم الا لساعة خاطفة لا يسلم فيها باب مهمل ولا تمتنع دابة . وتردد اسحاق بالطبق متعبا وتكاسل الحاجة فاترا ووقفت المدامة يائسة كانها شبح مضمحل .

وجلس عمار خائرا يفرك عينيه كان سهرة الليل وحلقة القمار ارهقت اعصابة وجاءه اسحاق يردد ما يتردد في كل فجر بين المبكرين .

... كل ليلة ضربة ... حصان ... جمل ... بقرة ... بغل ...
لابد ن تصيب كل ضربة نصيبها وتساءل عمار مستغربا .
... لا افهم ... من بنا في هذا البلد ...
واستعوذ ـ الحشائشي ـ مستغفرا

... اعوذ بالله من شر ما خلق ... اولاد الحرام ...
واحتار الحاجة لا يهتدي :
نحن اخر من ينام في هذه السوق واول من يقــوم ...
لا نرى ولا نسمــع ... كان الايام اجتازتنا وقــال اسحــاق متكهنا :
... لا ارى ساقا في الدار الا منها فيها .
ونهى عمار عن هذه الاقاويل
... كف لسانك ... لاحاجة لنا فيما لا يدلنا ...
وتبرا ـ الحشائشي من هذا الحديث المريب
... لا تعمل ولا تخف ... اذا حم القضاء تعمى اليمنى واليسرى
وقهقه اسحاق متندرا :
... الحاجة لا يسرق غير القطط السمينة
وانفجر الحشائشي ضاحكا
... سامح الله الايام المريرة
وتندر عمار يخفف وطاة القمار :
... عيش ـ المدامة ـ مر من وحدتها القاسية

والتف اسحاق عابثا
الحاجة ادرى بسرها ... أنا لا تطيق وجهي

وقام الحشائشي لا يروم ان ينحدر به الحديث بعــد ان صام لسانه وتمشى بين الحــوانيت يختال متبختــرا وقهقــه اسحاق يسب الجبة والعمامة التي يضعها رهط الحشائشي ليخادع عباد الله الاغبياء . وانفجر الحاجة يريحه ان يخفف نقمته على الدنيا ... قبح الله المال الذي ينتفخ به صدر هذا

المنافق ... يتحدح في رحاب السوق ... شطره حمار وشطره ثور .

وتنهى عمار يائسا :
... ادوار الدنيا ... رجلها من ركب صدرها ... جوادها من ركب فرسها

وتذمر ـ الحاجة ـ لا يرضيه حكم الايام :
... لا فارس ولا جواد ... رايت كلبا يركب حصانا ...

واخذ اسحاق الطبق متضاحكا :
... لا فيها فارس ولا جواد ... تعصف الريح ويبقى الصحيح ...

ووقف لامين مع صاحبه الحشائشي وسط السوق يجانبه اطرافا من الحديث قبل هبوبه الى سوسة . وتضاربت حركة النهار في ساعة الضحى وفشت اخبار كثيرة عن وقائع الليل في البلد وما بات يتهدد اصحاب المواشي والابقار .

وتقضى النهار وجاء الليل بالنهب وعاد الحديث حائرا بالتاويل كان المسروقات ترفع رفعا لا تترك اثرا يقتفيه المقتفون ولا سبيلا امام ربها غير سبيل السرابين المتصرفين في الشرقات من الخيل والبغال بعد اداء مالابد من اداءه قبل ان تدرك بلاد الغرب في الجزائر اوفيا في الصحراء في طرابلس .

وبهر الحشائشي دهاء لامين اذا افلح نمرود مع الابرش

يسرقان البغال والخيل والابقار والبعائر ويدفتانها في المغاور والكهوف ليردها ـ لامين ـ عن طريق السرابين ويتقاضى عنها مالا غزيرا . وضرب لامين فوق كتف صاحبه يدعوه ان ينام يقضا في هذه الايام العصيبة بالسلب والنهب وبهت ـ الحشائشي ـ من تانق صاحبه في غرزته الميتة التي لا يدرك ابرتها غيره .

وتضاربت الاقاويل وحامت الشكوك لا تهدا اصداء حادثة حتى تجد اخرى اشد وقعا لا تخطيء حارسا او مجيرا واتجهت العيون الى ـ اولاد الخشين وغار عمار ان يدوس العربان البلد لا يدرهم كاهية أو شرطة وسب الحشائشي هذا القهر المريع والاستبداد على متاع الناس في عقر دارهم وبات الناس لا يعرفون متى يداهم الخطر في ساعة لا ينتظرها احد كان السطاة انتصبوا تحت اسوار السوق او وراء الطوابي القريبة .

وحم الليل وانقطعت الحركة وانتفضت حلقة القمار ونام ـ اسحاق ـ وسقط الحاجة مخدرا واخرست الكلاب المتنابحة ووجمت الحيطان متهيبة واحتجبت اشباح الاغوال وانطفات العيون وسقطت الحياة كانها كهف خراب من احلام سراب .

ومزق صوت بعيد في جوف الليل المخيف وعلا صراخ النسوة كانهن ازاء موت مفاجيء . ورجعت الافاق اصداء ضجيج مغموط يهب بالناس متلصصين خائفين ، وجرى المغيثون تهديهم الاصوات المتجاوبة الى غوث من رماه النحس في هذه الساعة . وخرج عمار لا يطيق ان يسمع بكاء الرجال

افظع من نحيب النساء وتسلل ـ اسحـاق ـ خائفا لا يطيعه ـ الحاجة ـ ان يفزع داعيا بالوباء القشاش على الغنم والبقر والذهب والنقود لتسلم الدنيا ويستريح الناس .

والتقى المغيثون امام دار ـ الحاج عثمان ـ متحرقـا معذبا وملا الناس الشارع تلتقي النظرات في عيونهم خزينة حيرى وتتضارب الخواطر في صدورهم تائهة مختنقة . وامر عمار ان يدق طنبور العزق ويهب الناس جميعا في كل طريق .

وجاء عبد الغفار يفحص اثر الحوافر في التراب ورافق الرجال طريق المقتني واثقين من فراسته ويقينه في اثر الحوافر الا اذا اشتراه السطاه بما يشتري اصحاب الدواب متاعهم . ومشـى الحشائشي مع لامين في قافلة المقتفين يعزيان الحاج عثمـان واثقين ان يدركهم عبد الغفار ـ لو ابتلعتهم الارض

وتراجع المفزوعون في اعقاب الليل يلعنون هذه الوقائع المريعة . ووقف الحاجة ازاء مجمرته يزدري التعاليق السخيفة وطاف اسحاق لا ينطلي عليه ان تصيب هذه الضربات مـن تصيبهم دون ان تكون فيها يد بين الجالسين والواقفين . وعاد عمار يجلس مع لامين والحشائشي يثيرهم السطو . وتحدث اهل السوق جميعا معذبين ازاء هذه الوقائع لا مـن يحمـي متاعهم ولا من يدفع عنهم الاذى . ووقفت المدامة كانها شبح مضمحل تجس منهوكة نبض السوق وتتهم اهلها جميعا .

وقضى الناس نهارهم يقظين محترزين يتناقلون آخبارهم ويتضاربون باسماء كثيرة . ورجع ـ عبد الغفار يائسامن اثر

الحوافر بعدما قطع الاميال في طريق الخزازية يمسك خيطا واضحا . ونفخ ـ عمار ـ يسب المقتفين وادوارهم اذا صح انهم يفزون بين خف وحافر . واشار لامين ان يلوذ ـ الحاج عثمان ـ بالسراب الصامت ـ عبد الجبار ـ الذي لا يفوته علم ولا تخفاه خافية . ونصح ـ الحشائشي ـ ان يستنجد الحاج عثمان بالعرافين ليرمي خيط الرمل ويكشف له الحقيقة .

واقبل الحاج عثمان على عبد الجبار القائم بين اكواخه وسط الكهوف والمغاور وقبل التراب بين يديه مستعطفا مسترحما وامتنع ـ السراب ـ انه تاب الى ربه وقطع صلته . والح الوسطاء يقضي حاجتهم مقابل ما يلزم من الاجر والبذل ووعد عبد الجبار ان يتجسس الخبر حتى يهتدي الى الاشرار ويدفع اليهم ما يبتغون . وقبل الحاج عثمان يده راضيا ان يقدم كل ثمن لترجع اليه الناقة التي تلد له كل سنة .

وطوى نهار السوق ليل البلد حتى اهتدى عبد الجبار ودفع اليه الحاج عثمان مبلغ التبشير مرتاح البال طيب النفس واشرقت الوجوه تبارك يد هذا الرجل الطائلة وخطة ـ لامين الناجحة لاداعي لكاهية او شرطيين . واحتفت ربة الدار بالناقة الاصيلة منتصرة على قوى الشر الغاشمة . ورفع ـ اسحاق ـ يديه الى السماء متندرا ان يصيب من يسرق له في الليل ليصيب البشارة في النهار ونهى ـ عمار ـ عن الحديث داعيا اصحابه ان يضموا افواههم حتى يصيب الله السطاة . وتافف ـ لامين ـ كان سر الوقائع العاصفة يضنيه . واقسم ـ الحاجة ـ ان سارق الدار منها فيها ، واعترض الحشائشي

لا يرى اثرا يخفي على عبد الغفار وتلعثم ـ اسحاق ـ كـانه يحس باحابيل العتاة تكفيهم مبالغ البشارة مشاق التسويق الى الجزائر او طرابلس .

وباتت السوق ليلتها ساهرة يترصد اهلها كل حركـة وانتظمت حلقة القمار بالاوراق والنقود المتراكمـة اكداسـا مغرية . وجلس مع لامين السهرين يجاذب صاحبه الحشائشي الحديث متفكها متندرا كان الماضي خيمت به السهرة الطويلة في سماء السوق وقضاء المقهى .

واذنت ساعة الفجر ودبت حركة المصلين . وتسـابقت اصوات الصبية من كتاب الشيخ ـ راجح ـ القريب وتجاوبت اصوات القوالين والباعة المتجولين . وافتضح النهار يلـج ابواب الرزق في وجوه العاملين والعاطلين وانتفض عمـار رابحا غانما من حلقته . وقف الحاجة خائرا ازاء مجمرته وبسط اسحاق كفه للطبق فاترا مبسملا وتراجـع لاميـن مع الحشائشي دون ما يشير شكا او يبعث ريبا .

وتدحرجت الحياة هادئة تلتئم فيها حلقة القمـار ليـلا وتشرق بها حركة السوق نهارا وعادت الاخبار المريبة يتهامس بها الناس مرتبكين لا يسلم كبش او ثور او بغل كان عصابة الشر هادنت البلد تتربص ساعاتها المصيبة وعاد عبد الغفار يشق الطريق مقتفيا يائسا وعاد عبد الجبار ... يسترجـع الدواب بالبشارة .



19

مسك ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ خناق الـدواب فـي البلد ، عيون الطريق مبثوثة والاذن الجوسسـة مرهفـة ، لا سبيـل ان تخفق خطـة تدبرها ضـ لامين ـ وكتـم سرهـا ـ الحشائشي ـ لتدرك المواشي الثمينة دربها سالمة امينـة يقتفي اثر حوافرها ـ عبد الغفـار ـ ويسترجعهـا ـ عبـد الجبار ـ مقابل البشارة ، اذا كانت من رزق الحلال ولم تقطع الحدود الى الجزائر او الصحراء .

وبات اصحاب المتاع يقبلون ايدي السرابين والصرافين المتصرفين ويدفعون اليهم ثمن الدواب واجر الاتعاب ، لا داعي لكاهية او شرطة لتضيع المسـالك وينقطع الخبـر ، اذا راب الاطراف ما يريبهم من امر الحاكم وخداع المتربصن .

وجلس ـ الحشائشي ـ امنا مطمئنا على متاعه كانـه رزق حلال لا تلحقه يد الاشرار ولا يفزعه في اعقاب الليل ما بات يفزع اصحاب الدواب والمتاع . وتردد ـ لامين ـ علـى مقهى ـ عمار ـ يستنشق الاخبار ويتشمم الروائح من وجوه اهلها وراب ـ الحاجة ـ ان تكون يدا غير يد ابناء البلد واقسم ـ اسحاق ـ انها غوامض فيها ما فيها . وشكر ـ عمار ـ ربه الذي مسح اثر الدواب من ساحته بعدما كان يملك نصيبـا

وافرا .

وتعاقبت الايام لا تنقطع حلقـات الرجال فـي المقهـى ومجالس الاعيان يبعثرون الحديث ويخوضون الغيب القاتم . واكب – لامين – على شؤونه في البلد ووقف – الحشائشي – حريصا متافقا يجلب الرزق من كل باب وتقهقر – عمار لا يربح من حلقة دون ان يخسر في ليال متوالية . وتضايق الحاجة من نار المجمرة تصطايه من الفجر الى العشاء . ويئس اسحاق ان تدبر الدنيا على الماسكين ناصينها لا يمسهم حتى السطاة بما يمسون الاغنياء .

وساق الرزق رزقا واغدق الكسب كسبا واخصب المتاع متاعا . وارتبط – لامين – بالحشائشي – لا يفرق بينهما ليل او نهار ... يمتلكان الغروس الغالية ... يختار ان الزيتونة المدوحة من كل سطر في كل غرس ... يشتريان على الشياع ما يروق شراؤه ... الشجرة مع اختها تلك التي تدر نصيب غرس من الاشجار المضمحلة ... يتخيران البقر ... ابنائه وفحوله يشتريان الدور ويعمران فيها بالعـرائش واسـراب الحمام والدجاج والارانب ... عربـات الحطـب والبغـال السميكـة ... يقف العاملون لها بالعلفـة والشـراب فـي ساعاته ...

واشرقت الدنيا زاهية وكاد – الحشائشي – ان يدعو صاحبه ايكف عن خدمة عارها اكثر من ثمارها لولا حاجته الىهذا الرجل الذيلا تقف لهيد ولا ترد لهكلمة واستخفلامين من غباوة صاحبه الذي لا يعرف من اين تؤكل الكتـف ...

جلاردي غطاء من حديد ... يخافه الكاهية والمراقب وكل كلاب هذه الدنيا ... نمرود و ـ الابرش ـ سلاح قاطع نركب به كل الرقاب ... حتى رقبة ـ جلاردي حرث في الليل ... وحصاد في النهار ... نمرود بسطو ... الابرش يدفن ... عبد الغفار يقتني عبد الجبار يسترجع ... انا وانت نقبض ...

وطاطات السوق لا معبود فيها غير المال . وجنا البلد لا حاكم في مواليه غير الجاه . وخرت الدنيا تسف التراب بين ساقي ـ الحشائشي ـ و ـ لامين ـ كانها من المواشي المنهوبة تسترحم السرابين والمتصرفين ليرحموا عذايها .

واقبل الناس على رجلين لا ثالث لهما ... نساؤهن غنيات مترفات ... البنون والبنات ... الاهل والاقرباء ... الجيران والاصدقاء ... كلهم في خدمة المفلحين ... يقضون الحاجات ... يحفظون الشؤون ... يشدون الركاب ... ابداهم بين قوافل العربات واسراب المواشي وقطعان الاغنام التي تضرب بين الحقول والغروس ... المؤذن في الجامع يكاد ان ينادي باسماء غير التي يعرفها الناس ايام اشتد الجرب الحكاك يدمي الجلود ورسب وباء الحمى القشاش يقبض الارواح واستفحل الفقر المهين يعمي القلوب .

ومكث ـ نمرود ـ مع صاحبه ـ الابرش ـ يقطعان الحدود البعيدة بالدواب مرة ويخفيانها في تراب البلد مرات . ومكث ـ عبد الغفار ـ يقتفي اثر الحوافر مرة ويعكس مرات . ومكث ـ عبد الجبار ـ يسترجع الدواب كلما جاءت البشارة في يده قبل ان يتسرب السطاة ويدركوا بها اسواق الجزائر او طرابلس

الغرب . وانكفات سكة النقود اسهما عادلة بين اصحاب الحق فيها .

واختار ـ الحشائشي ـ عروسته من بنات الاكابر الغنيات ، غصة ناعمة وارفة ، وقدم لها الذهب ارطالا من الخلاخل والاسورة والخواتم والشرائك .

ووقف له اصحابه يرعون حقوق المدعوين في الطعام والحمام والحجام . ومسك ـ لامين ـ زمام الامور كلها ، لا ينقطع الرجال بين يديه ، حفاة عراة ، وانتشرت السهرة بالمتهاطلين من كل صوب وشنفهم ـ عبادة ـ باشعاره التي تصيب جروحهم المندملة بما تصبب الخناجر الحادة قلوبا بائسة . ودارت ـ كوانين ـ الشاي على الحلقات . وبذل ـ التكروري ـ مع الحلوى والبيض وقدمت الخمور القاطعة من ـ البوخة ـ البيضاء والنزيتة ـ الصفراء . واشرقت ليلتهم الثانية مع جوق الشيخ ـ بيزة ـ يغني لهم ـ انا العصفور في وكري نغني ـ وتتحداهم خلاياته ـ رابحة ـ شيبا وشبابا حتى طلع نهارهم صاخبين ضاجين .

ووقف ـ عمار وسط الرجال يرش الزهر مع الحاجة و ـ اسحاق ـ بالمرشات واستوى ـ الحشائشي ـ بين وزيريه في قده وقوامه وسط جموع الراقلين في الجبائب حول عريسهم السلطان يرتدي افخر ما يضعه العريس ليلة دخوله ، نوازة كبوسه الاحمر سوداء تتدلى بين كتفيه العريضتين .

ودق الطبالون دقا مبرحا حتى كانت جلود الاتهم ان

تنشق من فرط ما تضرب فوقها العصي ونفخ الزامرون في مزاميرهم تكاد قصباتها ان تفتر عن النافخين الزامرين .

ودفع ـ الحشائشي ـ باب غرفته ودخل عريسا على البر والتقوى ورمى منديل البكارة تتقاذفه طلقات البارود ممزقة في جوانب الليل الخائف .

وتراجع ـ الحاجـة ـ مع ـ أسحـاق ـ يسبـان نصيب المسكينة التي رماها بختها المنحوس بين احضان افعى رقطاء لا يفتر فحيحها السموم دون ان يقبض روحها ولا يرجع عنها اهلها الطامعون دون ان تسؤ العاقبة وتسود الايام .

وازدان وجه ـ لامين ـ بما بذل في عرس صاحبه ومـا انفق في سهرة ـ عبادة ـ او حفلة الشيخ ـ بيزة ـ واشرق ـ الحشائشي ـ عريسا تغمره الايام بالرخاء والنعيم لا ينتظر الا ان يفتح باب بيت مكة حاجا بعد ان قطعت الثروة ذنوب المجمرة والاباريق واخرست صوت بابا الاخضر ـ وازاحت تخايل ـ اسحاق ـ ونقمة ـ الحاجة ـ

وسقط ـ عمار ـ متهالكا على حلقة القمار ، لا يربح منها حتى يخسر فيها يائسا كافرا ان تحكم اوراق ثلاثة حكمهـا القاطع وتطالعه باللون الاخضر كلما امن شرها واطمئن الى محاصيله من الارقام التي لا تسبقها ارقام اللاعبين معه دائما هي بين ـ النوفي ـ والسبعة .

وعاد صوت ـ بابا الاخضر ـ يزمجر في اذن ـ اسحاق ـ

اذنا في طبق الدريبة ، مستفتحا يومه بالقهوة التي لا يدفع فيها ما يدفعه الناس حتى يسوق الله الثمار والخضر والغلال واكواز الزيت والسمن والعسل وشكاك الدجاج وسلات البيض كل ذلك ليقول كلمة خير في اصحابها بين يدي سيده الكاهية كلما خلت الدريبة وصفا الجو وطاب ربه يجسه ويهسه فيما لا يعلمه من جاشية المشائخ او العشرة الكبار ، والمقربين او المتقربين من الذين لا رجاء لهم في دنيا الرجاء ، غير كلمة يقولونها او حاجة يقضونها او وساطة يبذلونها في صالح من لا صالح عندهم الا ما تمتليء منه الجيوب ويفتن العيون ، ويشفي النفوس ، ويدفع الناس متسابقين متهالكين وراء سراب الغنى ، واحلام المغانم واوهام الامل بما لا امل فيه الا اذا اشتدوا في طريقهم كما يشتد ـ الحشائشي ـ تقيا متورعا ، ويتدبر ـ لامين ـ ثابتا مفلحا ، ويتعفف ـ عبد الغفار ـ زاهدا مغيثا ويتوسط ـ عبد الجبار ـ معينا محسنا ويقامر عمار طامعا لبسطو ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ كلما ارخى الليل جناحه ، ابدا يخطر كل في مسارب الطريق الامنة التي لا يسطو عليها من يسطو على مسارب الناس في طريق السوق وشوارع البلد .



20

استقرت السوق مزهوة ترفل في ملابسهـا المغربيـة . الحشائشي رجلها الذي يلوذ به الحقير ويحتمي عنده المقهور لامين دبيرها العارف وداهيتها النافع الذي لا يرد في وجهه باب من الابواب . عبد الغفار لبيبها الثاقب الذي يقتفي اثـر الحوافر وعبد الجبار ـ نقيبها الماهر الذي يسترجع الدواب من أطراف الدنيا .

وسقط عمار يعيش مرتزقا وراء من ساقت لهم الايـام سواقيها تصب صبا غزيرا . وبات اهل البلد يسفون التـراب بين اقدامهم ويدفعون اليهم ثمن الاتعاب قبل ان تشق الدواب طريقها الـى اسواق ـ الجزائـر ـ أو تقطع الصحـراء الى ـ طرابلس ـ الغرب ، لا تراها عين ولا تدركها يد .

واستوى ـ الحشائشي ـ على عرش السوق يشع فـي وجهه نور التقوى ويخفق قلبه بالايمان ابدا يلبس جبة القضاة ويتلحف لثام السراة ويحتذي نعال المصلين ويستعوذ مستغفرا منيبا كلما داخله الظن الاثيم او وسوس اليه ابليس اللعين .

ومكت صاحبه ـ لامين ـ يشد الاعنة الدقيقة ابدا هـو يتافف ويتدبر ، وجهته جلاردي وايمانه النابض في قلبه ثروة

مال واعمال يعبدها الناس ويطاطا لها الحاكمـون وتجـرى وراءها الدنيا هاربة من ذاتها مقبلة على الها .

وتراكمت الثروة بالمال والمتاع كانها اكوام تبن في بيادر الدريسة . وتكاثرت مكاسب الاغنام والمواشي ترتع بين الغروس والحقول كانها القش المتراكم في مزارع ـ جلاردي ـ وعجت عربات الحطب تجرها البغال السميكة ويركبها الرجال العتاة ، ابدا صفوفها متلاحمة في الصيف والشتاء واكياسها مشحونة بالقمح والشعير وحب الزيتون ، ابدا هي متسابقة متلاحقـة بالعلف والتبن او ظلف الهندي وزرب الجداري والسـدر او صوف الجز ووبر الابل او تمار البطيخ والدلاع وبقول الفول والحمص لا سبيل ان يمسها قحط او يحطها ما يحط دواليـب الناس في البلـد من افات الجـراد والـزرزور او امـراض ـ النعجة ـ الذي لا تذر سنابل القمح غير قشور خاوية .

وتالق الحشائشي في سماء السوق ، نجما قطبيا فـي جبته النظيفة ويده المبسوطة وخيم ـ لامين ـ في فضاء البلد ، محورا ثمينا ، تدور به كل حركة .

وسعت الايام سعيها . واقبل ـ الحشائشي ـ على زوجته الغضة الناعمة يبني حياته معها جديدة مفعمة ، تبعـث فيـه الامل المشرق وتسكب في عروته الدم الصافي . وتفيات احلامه تخامره ان يعيش العمر قبل ان يحج البيت اذا شاءت الايام ان يتزوج امراة ثالثة تعيد الشباب كلما ذوى زهره وتنفـح الحياة كلما جف عودها . واحبت العروسة زوجها في غرفة لهـا وحدهـا لا تطمـع فيها زوجتـه الطـالق ولا ابناؤهـا

المتمردون ... اشاح عنهم ابوهم كانهم غرباء في داره ...
زادطعامهم في ركن امهم ... شؤونهم ملك أيديهم ...
يسلكون كما يسلك ابناء عمهم اليتامى ... رزقهم على الله ...

ووقف رب الدار صارما لا يسمح ان تفتح ام البنين الطالق
فمها ، تعاتب على شؤون الدار ، هي التي حملت اعباء السنين
المرة وبؤس الحرمان القاسي . طالما جاعت ليشبع . طالما
تعرت ليلبس . ولم يكن ا لاان رماها بامراة لا يطيقها الحجر .
امراة تتكحل وتتمشط . لا تمد يدها فيما تمد النساء . لا يعاتبها
او يحاسبها على فراغها طول النهار .

وسكتت الام الطالق ، ابدا يعاتب اهمالها كنس الدار
والمرابط وتقصيرها في رحي القمح او غسل الصوف او تكسير
الحطب كانها وحدها هبة رخيصة في فم ــ الطابونة ــ بين
نارها ودخانها ومطية يركبها اهل الدار جميعا في طعامهم
وشرابهم وقيامهم ورقادهم . ولم يكن يسكت عنها دون ان
يمسح بها الارض حتى على خروجها الى الحمام ، كانها لا حق
لها في غير ما اختار لها متجبرا متعسفا وما اختارت لنفسها
خائفة مستسلمة ، لا يهون عليها ان تهمل ابناءها في براثن
ضرتها .

وتبرجت الدنيا كانها عروس غضة ناعمة فاتنة ، لا
يدركها الفناء بما يدرك ربيع الحياة واحلام الخلود . وامن

ــ الحشائشي ــ ايام العمر ، يجلس في السوق يحفه الاصفياء
والاوفياء ، يختار له الخضار من طيبات الغلال والثمار ،
ينتقي له الجزار اللحمة واختها من كدس الرقبة او الكتف او

الخلال . يتصدر محافل الناس في كل موكب .

وانكب ـ الحشائشي ـ بيني مجده ، لا يوم عند الناس دون ان يكون معهم ، ولا موسم لهم دون دواليبه ، ولا فروسية في عشيات الصيف قبل ان يتصدر بواجه الطبالين والزامرين لتتبارى الفرسان على انغامها كما يحتدم عراك الجمال في الشتاء . طار اسم ـ الحشائشي ـ في الافواه كان كل ما يتدبره ـ لامين ـ ويركب خطره ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ بات صاحبهم يجني ثماره مستاثرا بالجاه والوقار .

ودكت الايام ـ عمارا ـ في حلقة لا يجني منها غير الحسرة والعذاب ولا يجني من وراءه ـ الحاجة ـ و ـ اسحاق ـ غير التعب والارهاق ، يقومان النهار في خدمة لا تغدق ويسهران الليل في ادوار لا تفلح ، حتى اذا خلت ساحة المقهى وصفا الجو ، جلس الصاحبان كانهما فوق السطح تسبح بهما ـ الزطلة ـ وتتقاذفهما الغيبوبة .

وضاقت عشيتهما وتقضبت نفوسهما بعد ان سكنت حركة السوق ساعة وجلس ـ الحاجة ـ يثير ـ اسحاقا ـ الكابي ازاء الباب .

... المال ياكلب ... المال ... يرد الشيب شبابا ... رايت الحشائشي ...

وتبرم ـ اسحاق ـ قانطا :

... الوباء والكلب ... بالحرام ... كرهت ان ارى وجهه ... لو صلى الناس وراءه ...

واثار ـ الحاجة ـ عابثا :
... تكذب ... تتمسح به كانه ربك ...

وتحامل ـ اسحاق ـ
... وجه السوق ... مع الناس ... كانك لا تحسبه ؟ ..

وجد ـ الحاجة ـ محتارا :
... كانه يولد كل يوم ... يرجع الشيخوخة الى ريعان العمر

واستغرب ـ اسحاق ـ تائها :
... لا بد انه يحتال بالمساحين والعقاقير ليمحو التجاعيد من وجهه ... وينقي بشرته ...

وتضاحك ـ الحاجة ـ
... الزوجة الغضة الناعمة ياحمار ... بنت عشرة واثنين ... يابهيم التفاح اذا فاح يرد العقل والروح

واستخف ـ اسحاق ـ
... ودواء اليهود ؟ ياغبي ... تعرفه ... دواء اليهود يخضر له كل عود

وقهقه ـ الحاجة ـ ساخرا من صاحبه :
... راى ليلة القدر واستجاب اليه ربه ...

ودوح ـ اسحاق ـ مستصغرا :
... كاد ان يدفن نفسه حيا يوم انتزع منه ـ عمار ـ هذه المقهى ... يخالها كنزا ... ترى صاحبنا وترى الاخر ...

ودوح ـ الحاجة ـ محتقرا :
... مال اليتامى ياكلب ...

وصفر ـ اسحاق ـ مدوحا :

... هات ـ اعطني مال اليتامى وابق فيها بالسلامة .

وانفجر ـ الحاجة ـ متضاحكا مصطكا

... اعطيك بالعصا على جبينك ... انا وانت ... في تنور االفرناق ... مع عمار او مع الحشائشي ... لا ربحنا في حرب ولا خضنا في ـ مارشنوار ـ ... ولا اعطانا ربك اخوة ماتوا وخلفوا التركات ...

وانتفض ـ اسحاق ـ نافخا يائسا ان تسوق الدنيا التي اخطات وصبت عند ـ الحشائشي ـ

ما لا تصبه عند ـ كاهية ـ او مراقب ـ واختار لها العروسة الغضة الناضرة . واشتد ـ الحاجة ـ يسب الايام التي تلعب ادوارها عمياء صماء بكماء ، ترفع وتحط من اختارت ، وتغمر بالثروة والمتاع كما تصيب بالحمى والوباء ، كان كل ما يشيده ـ الحشائشي ـ وينصب احابيله ـ لامين ـ لا يفوت ساعة لينهار لا اثر ولا خبر ، ابدا هي الايام ، سيلها الجارف يهلك الشاربين من ماءها العكر لا يسلم غير من تعلم ان يخـوض فيها بين ماء وهواء ، رزقه على الله ، ما دامت عيون الحيـاة مالا حلالا او حراما ، وانفاس الوجود مكاسب ثروة يطمع فيها من امن ان يعيش العمر طامعا ، لا الحـرث يغريـه ولا الحصاد يغنيه ، اذا كان لا بد ان تخر الايام صاغـرة تمـلا مخازنه وتغدق مكاسبه كما تخر بين يدي ـ الحشـائشي ـ متورعا متصابيا وتسف التراب بين قدمي ـ لامين ـ متدبرا ماكر وتقبل على عبد الغفار ـ قانطا يائسا وتصب عند ـ عبد الجبار ـ تائبا ومتافقا .

21

اذن الليل ورجع ـ لامين ـ يجلس مع صاحبه في مخزن الشارع ازاء باب الدار ينتظر ان يصيب حرث ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ فوق حصاده وراء ـ جلاردي ـ كل يوم . وطابت السهرة ولذ حديثها يمد بروج الثروة في فضاء الدنيا الشاسع .

وسبح ـ الحشائشي ـ حالما لا يكتم صاحبه سرا :
... ابني حماما ... بالامين ... رجال البلـد في النهـار نساؤه في الليل ... واشترى حوانيت في السوق ... تبيع من كل خضرة وغلة ... من كل عطر ومسحوق ... من كل قماش ولباس مكاسب الدنيا بعضها من بعض ... الثـروة تنصب مالا من مال ... الثروة التي لا تدركها الايام ولا يهلكها الدهر ...

وتضاحك ـ لامين ـ لا يرى غير طريق ـ جلاردي ـ :
... الفلاحة تصب في التجارة ... ياغبي ... سكة القطـار وبواخر البحار ... تلتقـي دول المتاجريـن فـي اسواقهـا من جميع اطراف الدنيا ... يتبادلون البضائع بابخس ثمـن ويبيعونها باضعاف لا تخطر على بال . ولا سبيل ان تعيـش ارض دون ان تشرب من ماء غير ماءها ...

واستخف ـ الحشائشي ـ من صاحبه الغر :
... تريد ان تخترق افاق الدنيا كانك تقتحم حدود السوق ؟

... لا تعرف حتى كيف تكتب اسمك او تقرا ارقام الايام فوق اليومية ... لا بالعربي ولا بالسوري ...

واعترض ـ لامين ـ لا حاجة له ان يعرف :
... المال ... المال وحده ... انت تجهل قوة المال ...

وقاطع ـ الحشائشي ـ لا يقتنع :
... لا بد لك فيها من لعب اللسان ولعب الاقلام مع مالك من التدبير والدهاء ...

واكد ـ لامين ـ مستهينا :
... لا لسان ولا كتاب ولا قلم ... المال ... المال وحده ... تفصح الالسن في ركابه وتكتب الاقلام في اعلاءه ... يسيغ الحنظل شرابا عسلا ويرد نساء الرجال سيدا صناديد ... رب الدريبة وحواشيه ... مراقب سوسة واطرافه ... قاضي الشرع واعوانه ... المال يرقص بهم جميعا في طبق فوق مائدة ـ جلاردي ـ

وتثاءب ـ الحشائشي ـ كان منطق صاحبه يريبه :
تبقى في سوقنا ... لا يشاركنا فيها باي اوكاهية ... اخاف من دهاء اليهود ... يا ـ لامين ـ

وحك ـ لامين ـ فوق كفه كان رزقا يلج باب خزائنه :

... المال ياتي بالمال ... يارجل ... في سوق او في اخرى الاعنة في ايدينا .

وراب ــ الحشائشي ــ حك صاحبه فوق كفه .
... كانك تشتم رائحة الرزق من حكك فوق كفك ... اعــرف هاك ...

ونذر ــ لامين ــ ان ــ نمرودا ــ ضرب ضربتيــن فــي طريقه :
... ضربة في الخروج واخرى في الرجوع ... ياسلام ... ياشيخ ... اعرف انه عقار ... لا يخاف ولا يرهب ...

واشرق ــ الحشائشي ــ متفائلا لا يكذب من لا ينطــق على الهوى :
... يفعل ... بالحرام لا يساويه رجل فيما عرفت الرجال . نظرته تخيفني وصوته يرهشني .

وترشف ــ لامين ــ كاس الشاي متنحنحا :
... وانا ايضا حرت به ... أنتظر ان اظفر منه ... قلبــي يحدثني احاديث ... اذا دار علينا يا ــ الحشائشي ــ يجب ان نجد له بالوعة .

واوجس ــ الحشائشي ــ الخوف :
... اخشى من فالك ... ترف عينك لينزل الغيث ... تحــك قدمك لتسافر ... يخزك اصبعك ايموت اهلك ... كان عالم الغيب في حواسك ... الحك والرف والخز ... اعوذ باللــه

منها ...

وارهف ـ لامين السمع كان حركة تساوره :
... كان الطريق تجيء بهما ... احس انهما على البـاب .
والتئم ـ الحشائشي ـ جالسا يترشف كاسه متطلعا ...
ضربة واحدة او اثنان ... الليلة وكفى ... تـدبر امـرك بعد الليلة ... مع ـ جلاردي ـ او الشرطة ... او ادهـى منهما .

واجاب ـ لامين ـ ناهيا
... هذا شاني ... اكتم لسانك ... الساعة قريبة ...

ودق الباب دقا خفيفا ووقف ـ لامين ـ يشتم الرائحة من وقع الاصابع فوق الخشب واحترز ـ الحشائشي ـ من الطارق وهمس ـ نمرود ـ ينادي الصاحب الامين ـ ودفع ـ الابرش ـ الباب متهكما :

... من يجب العسل لا يخاف لسع النحل ...
واستبشر ـ لامين ـ ان يصدق حدسه ويكون فاله اصدق ما يبوح به الحك فوق كفه او العض على شفتيه ليقبل اعز احباءه .

ودخل الصاحبان متاثمين لا اثر من وجهيهما غير عيون مشتعلة وفتح ـ الحشائشي ـ ذراعيه يكاد ان يبسط لهما جبة الحرير وقهقه ـ لامين ـ مشرقا مطمئنا بعد ان اصابت الضربة وادركت الدواب مصيرها .

وتجدد الشاي عسلا اسود ، وانغمس الحديـث عذبـا

مريحا . ومد ـ نمرود ـ حقيبة يدسها في لحافه الكثيف تحت اطواقه المتينة . وامتدت يد ـ لامين ـ تفتحها واشتد البريق في عين ـ الحشائشي ـ تنفذ الى سرهـا منتعشة متنعمـة . وشعت اوراق النقد فيها اخاذة خلابة . وتهالك ـ لامين يداعبها باصابعه غضة ناعمة . وتقرب ـ الحشائشي ـ يمعن في حقيبتها المبطنة ويستنشق عبيرها الرقيق . ووبت الابرش ـ فوق كتف نمرود ـ الذي زهق روح صاحبها اليهودي في داره المنيعـة وتضاحك ـ لامين ـ يسب اليهود في كل ارض ، دينهم المال ودنياهم الغش والبهتان .

وقاطع ـ نمرود ـ لا يرى الحقيبة بما فيها تساوي ساعة من ليلته التي اقتحم فيها دار المخزي وراء سوق الذهب وطعن صدره لا ينتظر ان ينجو مع ـ الابرش ـ وأن يجمعه الليل مع اصحابه في المخزن ازاء باب الدار .

وضم ـ لامين ـ الذخيرة يلف حقيبتها ويدسها حيث لا تراها عيـن ولا تحركها يـد ولا تتبـادر الى ذهـن . وتلكـا ـ الحشائشي ـ كانه يريد ان يحسبها بين اصابعه وتنتعش بها روحه كما تنتعش من الزوجة الغضة الناعمة . وسقط الحديث ساعة لا يخرج من اخبار الناس وأنطلاء الادوار عليهم وخاض حينا في مشاق التسويق واقتحام الصحاري وقاطعه الشاي عسلا اسود يضاعف نكهة الخواطر .

وجد ـ الابرش ـ يفقا سر الكلام :

... لم تفعل شيئا ... لم تحاول صاحبك ـ جلاردي ـ

وتضاحك ـ لامين ـ ماكرا

... لا خوف عليكما مادمت حيا ... سوف يكون كل شيء في ساعته مع جلاردي ـ او غيره .
... يجب ان تتدبر امرك ... ما دام جلاردي رجل سوسة ... لا يعجزه ان يبرا ذمتنا من ـ جوقار ـ ومن ـ سلام ـ

واعترض ـ لامين ـ واثقا :
... تجيء الساعة ... اقام ـ سردوك ـ في ماذنة السوق كانه واحد منها ... لا من يعرف انه من ـ الالمان ـ تجيء الساعة ... ولها مدبر حكيم .

واستغفر ـ الحشائشي ـ متبرءا :
...صرع الرجل ومزق في فضاء السوق سالما .

وقاطع ـ نمرود ـ لحوحا :
... لا بد لنا من مخرج ... يد ـ جلاردي ـ طائلة ... او غيره ... نعطيه قفة بالذهب واكثر ... لا بد من منفذ ... او ننفطع في طرابلس ...

واحمر ـ لامين ـ متضايقا :
... الصبر ... صبر جميل ... ساعة تجيء في اوانها ... ولكما السوق والمقهى لالثام ولا قناع ... ايام قلائل ... الناس كل الناس يسرقون وينهبون في الليل والنهار ... بالخناجر او بالاقلام ... تمتد ايديهم حيث تطول ما تطوله ...

وتضاحك ـ الابرش ـ من وجه لامين المورد :
... تدبر امرك ... كما تعرف ... تدبر ياوزير او راسك يطير ...

وارتبك ـ الحشائشي ـ خائفا كـان الادوار انكشفـت وتدارك ـ لامين ـ مهتديا :
... جلاردي وعدني ... اعرف انه لا يكـذب ... يقضـي العسير والمستحيل ... لا يكذب ... هو بابي ...

رتضاحك ـ نمرود ـ واثقا :
... اعطه ما يطلب ... قفة بالذهب ... لا يهم ... عنـدك الرجال ...

واشرق المجلس وانشرح صدر ـ الحشائشي ـ لا يخشى نزاعا بين اصحابه كلما جد الجد واحمرت العيـون واشتـد ـ الابرش ـ مقسما ان يضرب ضربة ضخمة يملا بها الكفة التي ملاها ـ نمرود ـ واشتد ـ لامين ـ يطير محلقـا وراء البحار في اسواق التجارة اذا كتب الله ان يصيب ـ الابرش ـ حقيبة كهذه التي اضاء بها ـ نمرود ـ ليلتهم .
وتسلل الساهرون قبل ان تدب حركة السوق دبيبها كل فجر وتقهقر ـ الحشائشي ـ يسترق الخطى لا يامن الحيطان الا اذا دخل من باب المسجد ليخرج من بابه الاخر قبل ان يدفع باب داره امنا مطمئنا ويندس في فراشه ساعة تهدهده زوجته كما تهدهد الام طفلها .

واستيقضت الحياة ووقف ـ الحاجة ـ ازاء المجمـرة البغيضة يهاجن ـ اسحاقا ـ ازاء كؤوسه واباريقه كان حلقة القمار لم تدع لهما ما يلاقيان به الليل او يقابلان به النهار اذا تمادى رب المقهى لاعبا خاسرا .

والتئم النهار واطل ـ الحشائشي ـ يتبختر في جبتـه

ويرد التحيات بيديه كأنه يدفع الذبان عن وجهه . وجاء ـ لامين ـ يحيي كان الليل لم يجمع بين الاصحاب في مخزن الشارع ازاء باب الدار . وانطلق الحديث حرا في افاق الزرع والحرث والمواشي . واختار ـ الحشانشي ـ ان يبني حماما اجره وثوابه انفع من محاصيله . وكبر ـ اسحاق ـ مباركا اذا اصطفاه ربه لينصب في ركابه عاملا مجتهدا كما ينصب ـ لامين ـ في ركاب ـ جلاردي ـ مفلحا . واستعوذ الحاجة كان مجلس الابالسة انتظم موكبه في هذا الصباح ليبث العيون ترعى الشؤون الغامضة والسكنات المريبة لا حمام ولا اجر او ثواب ، ما دام الناس ادرى بالناس في ليلهم وفي نهارهم او في غناهم وفقرهم او في نساءهم ورجالهم . وقاطع ـ عمار ـ يرفع يديه بالتحية متقربا من مائدة اصحابه .

ووقفت ـ المدامة ـ وسط كلابها وقططها ترعى شؤون السوق خلال احلاف الرجال فيها واحابيل الماكرين ، ابدا ينصبها بعض الى بعض ، لا يسلم من اشراكها حتى الذين يعيشون اعمارهم لا يقربون السوق وترميهم الايام كما ترمي غيرهم لا يفك عقالهم الا ان يقبلوا الايدي الطائلة وان يسفوا التراب بين الاقدام الثابتة ، شان من لا شان له عند اهل الشان ، من اصحاب الحل والعقد في سوق رجالها لا سلطان عليهم ، ولا حاكم في حكمهم ، اذا كان لا بد ان تطول كل يد طولها ، وان تصيب كل ذراع باعها ، وان تتدبر كل نفس مساربها حتى تنكفا اليه بذراعها وتنصب الذراع في مساربها ، وتعوج الحياة على اهلها من اصحاب الباع والذراع .

22

اغرق الليل ودق باب المخزن دقا خفيفا . ونادى الابرش مغمغما وفتح ـ لامين ـ مستبشرا واقتحم ـ نمرود ـ الباب وراء صاحبه ظافرا .

وتجدد الشاي . وحام الحديث حينا قصيرا في مخاطر السطو وتذبذب بين حقائب الذهب واكياس النقود وبين الدواب ومشاق الانقطاع بها .

ومد ـ الابرش ـ حقيبته زاهيا متشامخا وهم بها ـ لامين ـ مشرقا . ورده عنها ـ نمرود ـ عابثا :
... تعرف ماذا فيها ؟ ثمار لم تمسها يدك قبل الليلة ...
وجذب ـ لامين ـ الحقيبة ... اعرف باعك ... انت والابرش ...

وتضاحك الصاحب مزهوا :
... ذهب ...

وتنحنح ـ الحشائشي ـ متبركا :
... كنز الدهر ...

وتضاكك ـ لامين ـ مراوغا
... تصريف النقود ايسر ... لا شك ولا ريب ...

وفتح ـ نمرود ـ الحقيبة وافترت شفـاه ـ لامين ـ ورقصت عين ـ الحشائشي ـ ازاء ذهبها المرصع وجوهرها الباغض ، لا يتماسك هذا او الاخر عن الحنو والترقق اليها ، كانها عروس غضة تناجي الساهرين بالوجد والصبابة . وضم ـ لامين ـ الحقيبة يدسها حيث لا تراها عين ولا تدركهـا ولا تتبادر الى ذهن .

ودار الشاي عسلا اسود . ورسب الحديث ساعة طويلة شاقة وراء مساعي ـ جلاردي ـ وعودة الصاحبين الى فضاء الحياة في رحاب السوق . وتقهقر ـ الحشائشي ـ يسترق الخطى لا يامن شر العيون قبل ان يدخل المسجد من باب ويخرج من اخر ليندس في فراشه تهدهده زوجته الغضـة الناعمـة ساعة كانه طفلها الصغير .

وعاد النهار وتحركت السوق ، يطوف فيهـا اسحـاق بالطبق فوق كفه ويقف ـ الحاجة ـ للمجمرة والابـاريق ، وترعى عين المدامة بين جوانبها حزينة ، وسط كلابها وقططها وينادي ـ بابا الاخضر ـ بين حين وحين كانه يهذي .

وجلس ـ الحشائشي ـ يرد التحيات ، رافعا يديه ، كانه ينش الذبان المتراكم . وجاء ـ لامين ـ يسعى ، كانه لم يـر صاحبه قبل الساعة ، ليخوض معـه في شؤون كثيـرة قبـل خروجه الى ـ سوسة ـ وحيا ـ عمار ـ خائرا مقهورا ، كان حلقة القمار وادوار الاوراق افرغت صبره وارهقت اعصابه .

وطاف النهار ساعاته . واغرق الليل سباته ، وجلـس ـ الحشائشي ـ يحاور صاحبه في مخزن الشارع ازاء باب

الدار موجسا ، اذا لم تفلح مساعي ـ جـلاردي ـ وضـرب ـ لامين ـ فوق كتفه مستخفا ان الساعة قريبة . ودق الباب خفيفا وهمس الصوت رقيقا . وفتح رب المخزن باشا وانكمش ـ المشائشي ـ محترزا .

وتجدد الشـاي ورسب الحديث حينـا قصيـرا وتـاق ـ الابرش ـ الى الحياة في نهار السوق خاتما كلامه .

... جلاردي لا يحار ... ولامين لا يعجـزه امـر ... عندنا الذهب والرصاص ... واصفر ـ الحشائشي ـ كـان نفسه باتت تحدثه بالشر ، ولا منفذ امامه الا ان يدرك النهاية واكد ـ لامين ـ ان الساعة قريبة . ودار الشاي عسلا اسود ، كانه الشراب القاطع . وتقلص الصاحبان قبل الفجر . وخرج ـ الحشائشي ـ متثاقلا يدخل المسجد من باب ويخرج من اخر وهب ـ لامين ـ في طريق السوق نشيطا .

وطاف ـ اسحاق ـ بالطبق . ووقف ـ الحاجة ـ ازاء المجمرة متخاذلا ورعت ـ المدامة ـ في جوانب السـوق ، حزينة ، وسط كلابها وقططها . ونادى ـ بابا الاخضر ـ بين حين وحين كانه يهذي .

وجلـس ـ لاميـن ـ كانه ينتظـر صاحبـه . وجـاء ـ الحشائشي ـ يرد التحيات ، باسطا يديه كان الذبان المتراكم هادن السوق . وخاض الحديث ساعة في شؤون كثيرة قبـل هبوب ـ لامين ـ في طريق سوسة .

وحيا ـ عمار ـ منكوبا محطما كان افلاسه في حلقات القمار بات يدور في راسه بامر ما تدور الدنيا باهلها . وطاف

النهار بين ساعاته . واغرق الليـل رهيبا رخيفـا . وجلـس ـ الحشائشي ـ يحاور صاحبه في مخزن الشارع ازاء باب الدار ، خائفا من العاقبة ، هاجسا موسوسا . وافتر وجـه ـ لامين ـ هادئا مطمئنا .

ودق الباب رقيقا ، وغمغم الصوت خفيفـا وانكمـش الحشائشي في مقعده موجسا وفتح ـ لامين ـ باشا وتجدد الشاي وحام الحديث ساعة قصيرة .

ونصب ـ لامين ـ الحبل مبتدرا :
... الذهب والرصاص ... والطريق نقطعهـا ... خطـوة خطوة ... واحدة بالذهب وواحدة بالرصاص ...

وغمغم ـ الابرش ـ
... حتى اذا لم يتوسط ـ جلاردي ـ اللعين ؟

واجاب ـ لامين ـ
نضرب راسه ...

وشخص ـ نمرود ـ
نضرب حتى الباي في قصره .

وتضاحك ـ لامين ـ
... الساعة قريبة او بعيدة . فتح بابها جلاردي او غيرد ...
لا سبيل ان نرجع او نسلم ... انتما في صدر امين ...

وتضاحك ـ نمرود ـ
... الرصاص يغلب ...

واختنق الابرش مشتتا :

... جلاردي لا يحار ... وانت لا يعجزك امر ...

وقاطع ـ لامين ـ جازما :

... انا اول من يقع ... ذرة تدكنا في الحبس ... وثمة من يقطع رقبته بيده ... خطوة خطوة ... وتجيء الساعة ... بالذهب او بالرصاص ... ضربة في البلد وضربة في ـ سوسة ـ من ينفذ الى السر ؟ ... لو توالت سنون العمر ... نركب الرقاب بالذهب والرصاص ...

وهجم ـ نمرود ـ واقفا :

طريق الليلة ؟

وهب ـ الابرش ـ متجبرا

... تريد خزينة البنك ؟ نجيبك بها ...

واشار ـ لامين ـ الى ابقار صاحبه ـ جلاردي ـ التي يمسك مفاتيحها وحاكت يده الامينة خطة الظفر بها دون عنف او اثر مريب في ليلة او في اخرى .

وتقلص الصاحبان وتراجع ـ الحشائشي ـ يدخل المسجد من باب ويخرج من اخر قبل ان يندس في فراشه وتهدهده عروسته الغضة الناعمة ، ساعة كانه طفلها الصغير . واختفى ـ لامين ـ كان انفاسه في قبضة هذه الخطة المنسوجة من خيوط الشيطان .

وطاف ـ اسحاق ـ بالطبق فوق كفه . وتخاذل الحاجة ازاء مجمرته . ورعت ـ المدامة ـ جوانب السوق حزينة بين كلابها وقططها ونادى ـ بابا الاخضر ـ بين حين وحين كانه يهذي .

وجلس ـ الحشائشي ـ كانه ينتظر صاحبه ليبت معه في شؤون كثيرة وقطب ـ عمار ـ جبينه عابسا مكفهرا كان امر افلاسه بات منهيا من شر ما تصيبه به الاوراق من نحس وعكس .

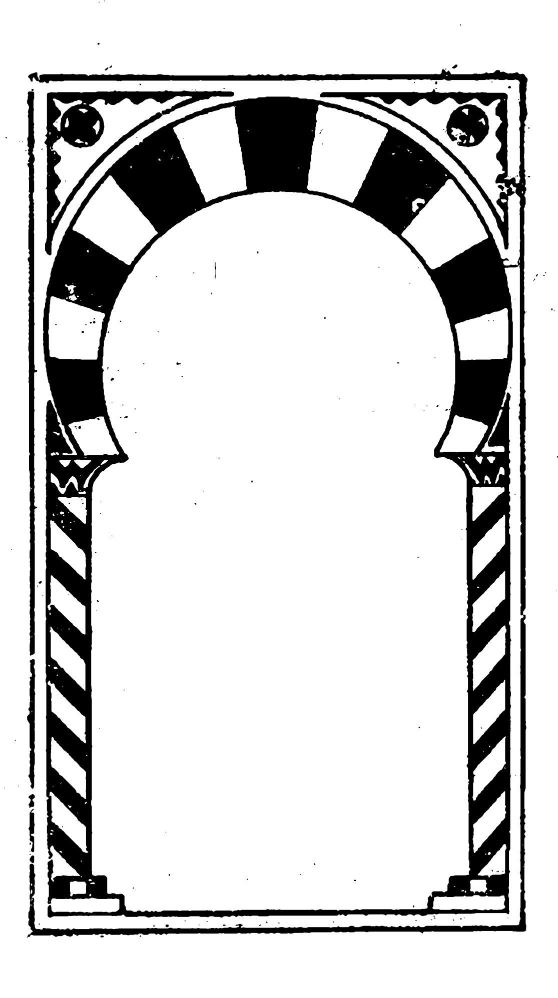
وخيم النهار بالحركة الرتيبة وازدهت حلقات الحوانيت بالاحاديث والاخبار الكثيرة . وتضوعت اصوات الصبية من كتاب الشيخ راجح بالايات البينات تغط اصـوات القواليـن والباعة المتجولين .

وتبختر ـ الحشائشي ـ في جبته الفخمة ينفق قفته كما ينفقها في كل يوم يائسا من صاحبـه ـ لاميـن ـ وتحـركت ـ الدريبة ـ يغمطها ـ بابا الاخضر ـ مزمجرا فيها هاذيا بين حين وحين وتذبذب ـ اسحاق ـ بالطبق فوق كفه بين الحوانيت ومجمرة ـ الحاجة ـ .

واطل ـ لامين ـ في طريق السوق مزهو متعاليا لا يجلس قبل ان يرد خبر السطاة على ابقار جلاردي وحتف نمرود مع ـ الابرش ـ وهب ـ الحشائشـي ـ مفزوعا كـان [illegible]ـوات ـ جوقار ـ جاءهم البعث في سوق البلد .

ودارت حلقة المقهى واتسعت وعجت التعاليق والظنون وتضاربت الخواطر والشكوك واقسم ـ الحشائشي ـ يمينه ان حوادث السطو على متاع الناس رابته باسماء كثيرة واسهب ـ لامين ـ ان رصاص الحراس اصاب ضرباته من خلف لا يدع سبيل النجاة .

وانتبه ـ عمار ـ ان ادوار السوق اجتازته في حلقة لا يربح منها ولا يرجع عنها . وفتح ـ اسحاق ـ عينين حائرتين كانه لا يصدق ان ينفذ ـ نمرود ـ او ـ الابرش ـ من اعمـاق ـ جوقار ـ ليموتا موتة رخيصة . وعابثه ـ الحاجة ـ مستخفا ان ارواحا مزهوقة لن تفارق سماء السوق تفزعها بالعبابث وتسقي اهلها الرعب .



23

اوحش الليل ودارت حلقة القمــار كما تدور كل ليلــة .
وجلس ـ عمار ـ يكشف الاوراق على عدد اللاعبين وجاءه
ـ الري ديناري ـ وامسك الكارطة ـ بين يديه يعد اوراقهــا
الاربعين ويخلطها خلطا قبل ان يضعها وسط اللاعبين وتمتد
اليها يد تقسمها شطرين ويرفعها ـ عمار ـ مستفتحا .

ودارت الأوراق ثلاثا امام كل لاعب وانحنى ـ عمار ـ
يجيب الطلبات باوراق النقد ، لا يسمح ان يمس احدا ـ داره ـ
قبل ان يضعوا مبالغهم المتساوية في ـ دار الوسط ـ ويكشف
لهم اوراقه ، يستلها من بعضها كانها ملتحمة .

وبكرت الاوراق الثلاثة ـ بالنوفي ـ وامتدت يد عمار ـ
تجمع الاكداس كلها امام اللاعبين لا تدع حتى ـ دار الوسط ـ
ما دام رقمه لا يحطمه اي رقم من التي تراوحت بين ـ القرعة
و ـ اللص ـ أو ـ التريس ـ و ـ الكواترو ـ

وعادت الاوراق ثلاثا أمام كل لاعب . وانحنى ـ عمار ـ
يجيب الطلبات باوراق النقد ومدت المبالغ المتساوية في ـ دار
الوسط ـ وكشف رب ـ النوفي ـ اوراقه يستلها من بعضها
كانها ملتحمة ، وحطم رقمه كل رقم واجتاحت يده الاكداس
كلها ما دامت ـ التسعة ـ هي رقم ـ النوفي ـ الذي لا يحطمه

رقم .

ودارت الاوراق ، يكر فيها ـ عمار ـ ويفر اصحابه كان البخت يكر له الليلة ـ بالنوفي ـ يعد ـ النوفي ـ ليسترجع ما ابتزت منه الاوراق العاكسة في ليال مريرة .

واغرق الليل موحشا ، وزقت كؤوس الشراب القاطع من ـ البوخة ـ الحادة . واشرق ـ الحاجة ـ كان الحظ عاد باغنى ما اشاح عن رب المقهى وترنم ـ اسحاق ـ منتشيا كان الليلة اشرقت باكثر من الاوراق المتكدسة امام ـ عمار ـ

وتراجع المتطفلون عن اللعب بعد ان افلسهم ـ عمار ـ ورسب اللعب بين اقطابه . وطار صوت من جاءه ـ النوفي ـ ينزع ـ الكارطة ـ عنيفا ويخلطها متشفيا قبل ان يضعها وسط الحلقة تمتد نحوها اليد تقسمها شطرين ليرفعها رب النوفـي وينحني يفرقها ثلاثا ثلاثا ويجيب طلبات اللاعبين بالنقود ، لا يسمح ان تمس يد ـ دارها ـ قبل المبالغ المتساوية في دار ـ الوسط ـ

واحمرت العيون وتصاعد اللعب حرا وانتقل ـ النوفي ـ بين يد واخرى يراكم النقود ساعة ويبددها لحظة . واختنقت الاصوات واشتعلت النظرات وردت الكؤوس تشفي الغليـل وتخدر الاعصاب .

وعبثت الاوراق تكتسح من ـ عمار ـ لا تدع امامه نقدا ، جاءه ـ النوفي ـ او اشاح عنه مقبلة على غيره ولا تلبث ان تدبر لتصب عند ـ عمار ـ فوق ما اكتسحت منه حتـى اذن

الفجر وتقهقر اللاعبون بين نشوة وخيبة يسبون حكم الاوراق وادوار اللعب .

وتحرك النهار وطاف ـ اسحاق ـ بالطبق فـوق كفـه وتكاسل ـ الحاجة ـ ازاء المجمرة . ووقفت ـ المدامة ـ ترعى جوانب السوق ، حزينة ، وسط كلابها وقططها ونادى ـ بابا الاخضر ـ كانه يهذي .

وجلس ـ الحشائشي ـ في جبته الفخمة ، يرد التحيـات رافعا يديه كانه ينش الذبان المتراكم وجاء ـ لامين ـ يسعـى وحيا ـ عمار ـ خائرا منهوكا بعد ما افرغ اللعب وارهقت مع صاحبه ويبت في شؤون كثيرة قبل هيوبه الى ـ سوسة ـ الاوراق اعصابه .

وطاف النهار ساعاته واغرق الليل سباته وجلس ـ عمار ـ يكشف الاوراق على عدد اللاعبين وجاءه ـ الزي الديناري ـ وامسك ـ الكارطة ـ يعد اوراقها الاربعين ويخلطها قبل ان يضعها وتمتد اليها يد تقسمها شطرين .

وفرق الاوراق ثلاثا وانحنى يجيب الطلبات باوراق النقد وصفعه الدور الاول ـ بالقرعة ـ المشؤومة ، لا يربح غير من جاءته ـ القرعة ـ وعادت الاوراق ثلاثا امام كل لاعب وانحنى ـ عمار ـ يفرق النقود ويتثبت من مبالغ ـ دار الوسط ـ قبل ان يكشف ثلاثته مستلا ورقة من ورقة كانها متلاحمة وباغته ـ اللص ـ حتى كاد ان يعض لحمه ، لا يربح غير ـ دار ـ واحدة .

وكرت الاوراق على ـ عمار ـ تصيبه بالارقام التي لا تربح حتى كاد ان يفلس في ساعتـه الاولى لـو لم يخـرج ـ النوفي ـ من يده . واحمرت العيون وتصاعد اللعب حرا . وزقت كؤوس ـ البو[illegible] ـ كانها السم الزعاف .

وتراخى المتطفلون عن اللعب بعد افلاسهم ورسخ اللعب بين اقطابه . وانهار ـ عمار ـ لا نقد امامه وتقهقر اصفـر مخدرا لا يعي اصوات اللاعبين في حلقة كـان ربهـا . وزق الكؤوس حينا مختنقا وتراجع الى داره كانه لا ينوي ان يكف الليلة قبل ان يسترجع ماله او يرهن عمره .

وهبت ـ فافاني ـ مفزوعة تعاقبه متحاملة :
هلكت نفسك يارجلا ... هلكت نفسك ... تسهر الى الصبـاح ... لا ترتاح ولا تدع من يرتاح ... السكرة والقمار ...

وتماسك ـ عمار ـ يردها مترنحا :
... اعرف كلامك ... اعرف ... اعطيني مالا ... اعطيني ...

وتكتمت الزوجة مشفقة
... اتق ربك ... اهجع واضجع ... اصلح لك ... لن تربح من القمار لو جاءك المال سواقي ...

والح ـ عمار ـ متحاملا :
... اعطيني مالا ... لن اضجـع ... اعطينـي من عنـدك الليلة ... واعطيك غدا ... اضعاف ما اعطيتني ...

وحاولت ـ فافاني ـ لينة :
... تعرف عندي ؟ ... من اين اعطيك ... كل مـا عنـدي

اعطيته لاخذ اضعافا منه ... ابني وابنتي ياعمار ... رباطي الوحيد في هذه الدار

واحتد ـ عمار ـ مهددا

... قلت لك ... هاتي ... خسرت مائة الفا ... الليلة ... هاتي لاسترد منها ...

وصرخت ـ فافاني ـ

... تسترد منها ... كانها اول ليلة تخسر فيها مائة الفا او تربح فيها اكثر منها

وصرخ ـ عمار ـ مهددا كان سكرته طارت :

... اعطيني توا قبل ان تشؤم الليلة ...

وردت ـ فافاني ـ صارخة :

... من اين لي ان اعطيك ؟ ... لم يبق ما اعطيك ...

واشار ـ عمار ـ

... من مالك الذي تخيطين به الثياب ... سوارك ... خاتمك ...

وتحاملت ـ فافاني ـ

... ضاع عقلك ... تركت لي سوارا او خاتما ... نسيت ... نسيت ياعمار ... اولاد الحرام فرغوا دارك ... فرتوا عشك ... قلبوا مخك ... ابتلعوا ثروتك ... وانا صابرة ... قطعت امي واخواتي وراءك ... صابرة ... كانني لست زوجة رجل .

ومهمه ـ عمار ـ ثائرا :
... هاتي النقود وقولي ما شئت ... قبل ان تشوم الليلة ...

وتجبر ـ عمار ـ على الخزانة ـ واستماتت ـ فافاني ـ على مفتاحها وامسك شعرها ، بين يديه ، يكرها ويركلها باكية مشفقة . وصرخت مستغيثة وخنق صوتها تحت خفه الكثيف لا يدع لها ان تنادي او تصيح . وتدافعت ـ فافانـي ـ كانهـا محتضرة واستبد ـ عمار ـ لا يكف عنها قبل ان تعطيه مالها ان تعطيه مداسة مقهورة . واحتد الصراع عنيفـا وقفـزت الزوجة تلوذ وراء طفليها الامنين ، ضارعـة مستجيـرة ان يرعى حقهما . وملا ـ عمار ـ قبضته بالمزهر مترنحا وضرب راسها متشفيا وانقض عليها ، تحته شاخرة محشرجـة ، لا يسمع رغاء الطفلين ولا يحس سقوطزوجته ، لا اثر لحياة على وجهها غير دمها النازف حرا ، صارخا .

اظلم نهار السوق ازاء حادثة ـ عمار ورد ـ الكاهية ـ باب المقهى ، لا رب له بعد سقوط ربه ، لا دنيا ولا اخرة .

واحتضن ـ اسحاق ـ ركبتيه ، جالسا فوق عتبة ، يسب في خاطره رب ـ النوفي ـ و ـ البوخة ـ ووقف ـ الحاجة ـ كانه يستنشق ملامح الايام في وجه السوق الواجفة .

ووقف ـ لامين يسعى سعيه مع ـ الحشائشي ـ ويبت في شؤون كثيرة قبل هبوبه في طريـق ـ سوسـة ـ ووقفـت ـ المدامة ـ وسط كلابها وقططها ، ترعى في غضون الوجوه المزورة ووقف ـ بابا الاخضر ـ في فم الدريبة ـ يغمط كـل

صوت وينادي بين حين واخر كأنه يهذي .

وتحرك النهار معذبا . وتمطى ـ اسحاق ـ بين الحوانيت كأنه يسعى بالطبق فوق كفه ولاذ ـ الحاجة ـ فوق السطح ، منهوكا متشاءما . وتبختر ـ الحشائشي ـ في جبته الانيقة ، باسطايديه بالتحيات كان الذبان المتراكم هادن سماء السوق . ووقف متشامخا ينفق قفته من كل شهوة طيبة .

وتمطى النهار بين ساعاته الثقيلة بالعويل والنحيب كان مصرع فافاني من يد عمار اهاج النساء وافرغ صبرهم من جبروت ازواجهن الضارب بالعصا والطلاق او الضرائر والكبت .

وطافت التعاليق بين حانوت الخياط وحلقة الحلاق ، تبت في بئس مصير ـ عمار ـ ونهاية الطفلين ، لامال والدين ولا صنعة يدين ، الا وجه الكريم ، او احضان ـ امك صالحة ـ المنقطعة الى ـ سوسة ـ

وركب ـ الحشائشي ـ جحشته ـ المصرية ـ خارجا الى الغابة القريبة ، يطوف بين زياتينه ويقف على دوابه ومواشيه مستريحا من اصداء النحيب والعويل تلج المسامع بالموت . وتمشى زاهيا تريحه مكاسبه وتتعتعه احلامه قبل ان يشب في ـ الصوان ـ ويساله ثاقبا مستسقيا .

ومرت به الطريق ساعة الى زياتين اخيه التي يصرف شؤونها حاذقا متدبرا ووقف حينا يفحص الساقية التي مال بها الى زياتينه من كل غيث ـ واجتاز الى الطوابي الكثيفة التي

اقامها سدودا منيعة في وجه الرعاة والعداة .

وخفق قلب ـ الحشائشي ـ واشرق وجهه ازاء ما جمعت يده وداهمه ابن اخيه بالرفش منفعلا :

... الساقية في ارضنا ... استحوذت عليها باطلا ...

وهزا ـ الحشائشي ـ محتقرا

... علمتك امك ... ياقليل الحياء ... ابتعد من وجهي ...

وتحامل الابن :

... امي براء منك ... ياجهنمي ... اكلت متاعنا ... ابتلعت رزقنا ... حصدت منه ثروة ... حرام زقوم ... لم تبق الا هذه السساقية ...

وامتقع الحشائشي :

... ابتعد من وجهي ... تعرف السواقي يافاسد ... ياكلب .

وشب فيها الابن بالرفش :

... لن اتركها لك لو مت من اجلها ... زياتينك حرام ساقيتها حرام ...

وثار ـ الحشائشي ـ :

... ابتعد من هنا قبل ان انادي لك الصوان ـ يعفس ام راسك في الطابية ...

وناور ـ الابن هائجا :

... اعفس في بطنك انت وصواك ... ماذا تركت لنا ... توليت امرنا بالقاضي واهملتنا في الشارع ... ابناء كبدك لم يربحوا منك ... ياجهنمي ...

وبصق ـ الحشائشي ـ لاعنا :

... كف لسانك ... ياكلب ... بالحرام اهرسك بالعمود وادكك في الحبس ... يافاسد ...

ورد الابن مقذعا

... بالحرام اقطع رقبتك بهذا الرفش ولا يحاسبني ربي ... انت عمي ... انت عم الشيطان ... وشب ـ الحشائشي ـ مهددا .

... ضم فمك قبل ان ابول فيه ... بالقيط ...

وثبت الابن لا يتقهقر خطوة :

... ارني ذراعك ... اقترب لتاكل راسك ...

ووثب ـ الحشائشي ـ صائلا في عنق الابن مولولا وطارت الاصوات بالتشائم واللعنات والتقت السواعد بالكلمات والصفعات هوى ـ الحشائشي ـ فوق ابن اخيه يكاد ان يعجنه شامتا متشفيا . واحتدت المصارعة في قفر الغابة وضيق العشية . وتدافع الابن متملصا حتى انقلب فوق صدر عمه يلطم وجهه ويخنق انفاسه وتملص ـ الحشائشي ـ متدافعا ينادي مستغيثا ووثب الابن يلوذ بالرفش ووثب عمه وراءه متعنتا كانه ينوي ان يبول في فمه . واحتمى الابن وراء زيتونة متبرءا من شره وتجهر عمه لا يرجع قبل ان يدفع اليه ثمن غروره لاهثا منهوكا . وقفز الابن الى زيتونه اخرى متبرءا مهددا بالرفش وقفز العم وراءه كانه فقد عقله لشد ما اصابه من الضرب واذاه به من الكلام وتسلح بالحجر دون ان يصيبه به وارتمى كانه سهم وردعه الابن بالرفش على راسه يطير

رغاؤه مخيفا مريبا ، وفر بين الصفوف والطوابي لا اثر ولا خبر .

واختنق صوت ـ الحشائشي ـ بالانين المتقطع حينا ، حتى ادركه ـ الصوان ـ من هبوب الكلاب المتنابحة ، تلطخ الدماء وجهه وجبته بالغمغمة والعويل ، لا تسعفه غير العربة يجرها البغل كانها مثقلة باكياس الدقيق .

وخيم الليل بالصراخ والنحيب ، لا رجاء امام ـ الحشائشي ـ غير مستشفى ـ سوسة ـ اذا لم يجئه الاجل وبقي له ان يعيش . ودارت الحلقة امام داره واتسعت كان رب السوق قضى بامر ما زهق ـ عمار ـ روح ـ فافاني ـ

وافزع ـ لامين ـ امر صاحبه لا يخال ابن اخيه يضرب راسه بالرفش وراء ساقية لا تسمن ولا تغني ، ولا يخال العم يعابثه بالكلام لو انتزع منه الزياتين كلها .

واجهش ـ الصوان ـ متذمرا انه لم يسمع حركة ولا دبيبا في عشته المطلة على اطراف الغروس ووقف ـ اسحاق ـ مبهوتا كان ـ الحشائشي ـ يتبختر امامه في جبة الحرير الوقورة وينفق القفة من كل شهوة طيبة وتردى ـ الحاجة ـ بين الواقفين يستنشق الايام من ظلام الليل كان روح ـ نمرود ـ او ـ الابرش ـ تبث في سماء السوق اشباحا من الاغوال والعبابث .

24

استقر ـ لامين ـ خافقا في سماء السوق بعد ان ابتلع السجن ـ عمارا ـ واحتضن مستشفى ـ سوسة ـ صاحبه ـ الحشائشي ـ ، لا يخال حياة ترجع اليه حين سقط يتخبط متدافعا . وتاه ـ اسحاق ـ لا وجهة امامه يقيس عرض الشارع وطوله بالخطى المتثاقلة الواهنة كان حلقات الحوانيت تضايق شغفه بالحياة النشيطة . واعتكف ـ الحاجة ـ سطح ـ الفرناق ، ينام النهار ويقوم الليل ، بين حشيش ـ وشراب مع صاحبه ، لا قبلة في دين هذه السوق ودنيا اهلها .

وانقطع ـ لامين ـ يسري به الصباح الى شؤون صاحبه في ـ سوسة ـ متدبرا ماهرا ويعود به الليل الى مخزن الشارع ، ازاء باب الدار ، ليجلس ساعة يستقبل فيها الوافدين عليه للمشورة والمعاملة ، ويدخل ساعة ، ليعكف على حاجة الوافدات في سقيفته ، ويعود ، كلما اغرق الليل سباته ، الى مجلسه في مخزنه مع من اختار من الغلمان والفتية كانهم مصابيح الدجى .

وطار صيت ـ لامين ـ في البلد ، تترقرق به الخواطر وتهيب به الالسن ، بعدما بات ـ جلاردي ـ يجري وراءه في سيارته الفخمة ويجيئه كلما غاب عنه أو فارق مجالسه .

وذاع بين الناس بره واحسانه ، لا يقصده منكوب في

دين او وساطة دون ان يجيبه ، ولا تتوكل عليه امراة في نزاع او معاملة دون ان يقضي لها حاجتها ، ولا تحين فرصة بـذل او عطاء دون ان يبادر فيها باكثر من كل المبادرين .

وتدافعت الايام في طريق ـ لامين ـ ترفعه في سماء البلد رب المكاسب والمتاع ورسول البر والاحسان ، كانها الدنيـا اختارت فحلها الاوحد ليحبل عمرها منى الخاطر وحلم الحياة

وتدافع ـ لامين ـ يهدي الضالين وينير سبيل الحائرين ، ينتزع اضعف الحق من اشد الباطل لا يرحم حتـى صاحبـه ـ الحشائشي ـ الذي اعيا شفاؤه الطبيب ، كانه يقاسي دعاء ام اليتامى التي فك ضيمهـا ـ لامين ـ من حجـر القاضـي والوصاية وذب عن ابنها من حكم ـ الدريبة ـ ويد ـ الكاهية ـ ناصحا ان تقف في رزقها وترد بالرفش والفاس كل معتد اثيم .

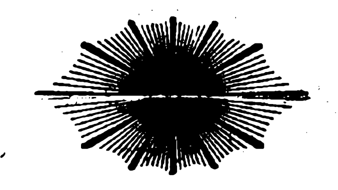
وبسط ـ لامين ـ يده فوق ما كانت مبسوطة بين البدو والحضر ، يشاوره ـ الكاهية ـ ويستشيره المشائخ ، يساله وكيل الاحباس ويقبل شهـادته العدول ، ياتمـر له ـ بابـا الاخضر ـ ويتقرب اليه اهل ـ الدريبة ـ تهش ـ المدامة ـ في وجهه وتبش ، اسمه يقضي فوق كل الاسماء .

وتراخى ـ لامين ـ عن شؤون ـ جلاردي ـ لا يخـرج اليها قبل ان ياتيه ربها في سيارته الفخمة الى بـاب الـدار وينتظر فراغه انا طويلا حتى يقضي من شؤون الناس مالا يقضيه غيره في البلد وينهي ماله ان ينهـي ثاقبا نصوحـا ، الفاتق الناطق بين الرجال والنساء .

وطاطات السوق باهلها ، كانها ترتمي في احضان امينة بعد كل ما توالى به على عرشها من الاطراف الضالة التـي دكها الشراب والقمار او هدها البرفش .

ولذت الحياة ، يعاقرها ـ لامين ـ هادئا مستطيبا كانها العسل المصفى ، يروح بها النهار الى منافعه الجمة ، ويعود بها الليل الى ملذاته الوحمي تنفحها ريح الغلمـان بالفتـوة والشباب ويصاعدها الحرمان بالشوق والشهوة ويشدها المال بالبذل والانفاق .

وتضوعت الاحلام تملى ، كانها بخور مسك او عبيـر من السماء ، لا تقف عند ـ حمام ـ يطمح اليه ـ الحشائشي ـ او امتلاك حوانيت السوق ، ولا تركب خطر البحار الى اسواق دول المتاجرين ، ولا تستقر على قصر منيف كانه ـ سرايا ـ الباي في مملكته ولا تكف ابدا دون ماهي الحياة النابضـة بالمنافع والملذات .



25

خيم النهار في فضاء السـوق عابسا ثقيـلا . وجلـس ـ اسحاق ـ فوق عتبة ، يواجه باب المقهى المغلق ، كانه يبكي ايامه المليئة . وجاء ـ الحاجة ـ خائرا متثاءبا ، يواجه فوق عتبة ، لاقبلة له في دين سوق جاحدة ، كان دنيـاها مقبـرة موحشة .

وتقطعت أصوات الصبية في الكتاب ، كان الشيخ راجح تخلى عن عصاه منهوكا . وتذبذبت اصوات الفوالين والباعة المتجولين ، تطير بها الريح الخافقة ، بعيدة مغموطة .

وجلس العدول في مكتبهم يستفتحون النهار بالقيل والقال حتى يبعث الله قسمة وتبختر وكيل الاحباس في طريق مكتبه ، كان موسم الكراء والصفقات دق الباب .

ووقفت ـ المدامة ـ وسط كلابها وقططها ترعى في جوانب الصمت ، حزينة كانها شبح مضمحل وجلس المعلم ـ دبة شقيا صامتا ، كان انقطاعه عن التباريح اقعد الناس عن سوقهـم ووقف ـ بابا الاخضر ـ يغمط صوته ـ الدريبة ـ وينادي بين حين وحين كانه يهذي .

وتضعضعت حركة الحوانيت ، كان موعدا من مواعيد الكساد يساور السوق . وتثاءبت الافواه كان فتورا يخالج النفوس وهامت الخواطر كان كارثة تصيب الحياة .

وتمطى النهار فاتر ثقيلا وتقطبت ساعاته عابسة مزورة وتذبذب جلساء الخياط في حانوته يعذبهز الضجر ، كان عبء الحياة ، متداعية امر منه عاصفة . واخرس اصحاب الحلاق في حانوته ، كان اسباب القيل والقال انقطعت عنهم .

ونفخت الريح ساعة . وتسرب الظلام حينا . واشمئزت النفوس وازورت الوجوه وردت الابواب . وعصفت الريـــاح عصفا مفزعا واحتدم الظلام كان الليل غط النهار ، وترقرقت الاصوات مستغيثة كان ساعة القضاء المبرم حمت . وتهاطل الغبار كانه غيث ينهمر من السماء . تكاثف الظلام قاتما كانه دخان حريق شب في الدنيا او رماد السنين الغابرة تردم بـــه اعقابها . وهزت الريح الابواب وهوت بالاسلاك والاعمدة . وغمر الغبار الارض نافذا الى البيوت متراكمـــا . واختنقـت الاصوات كان دخانا مخنقا من العجاج يحبس انفاسها . واشفق الناس مفزوعين مستغيثين ساعات طويلة مريـــرة يائسيـــن مستسلمين الى صاعقة من ربهم جزاء ماكانوا يعيثون .

واحمرت السماء كانها حريق او نار من جهيم خيمت بالويل والثبور وانقطعت الحياة بين نار تغمر وجه السمـــاء وغبار رماد رماد يغشى الارض .

واصفر الكون ساعة ترتجف به الريح متهافتة وتنفـش الناس حينا ، كان الحياة تولد في ارواحهم التي عقلها الفزع

والرعب وتبدد الدخان وكف الغبار .

وابيض وجه السماء وغمرت الشمس فضاء السوق . وترددت الاصوات المتمرطة في الصدور . ودبت الحياة واجفة مرتجفة كانها تبعث من سنة او تهب من نوم عميق ، وتحركت الخطى مستسلمة كانها تخرج من كهف دامس .

وتلاقت الوجوه مصرفرة مخضلة بالموت وتلاقت العيون بالنظرات المفزوعة المخروقة . وتهدجت الافواه ضارعة بالعفو والغفران وحفقت القلوب بالنجاة وبزوغ الحياة .

وهب الصبية من كتاب الشيخ راجح يعبرون فوق اندداس الغبار ، يساورهم الهلع وتعزيهم عودة النهار . وخرج اصحاب الحوانيت يذكرون الله مستغفرين مستتيبين . ووقف الشيخ راجح يترقرق صدره بالايات البينات ، خير ما تتدرع به النفوس في ساعات والانهيار .

ووقف الحلاق مشفقا مضطربا ازاء ما تراكم من تراب او غبار لم تعرف السوق لونه قبل هذا العجاج الاحمر .

واطل ـ اسحاق ـ مختنقا من سطحه لا يخال شمسا تشرق او نورا يخفق بعد ما راى من هول السماء وبطش الرياح . وخطر الحاجة مضعضعا كان ساعة السوق جاءت تمحو اثرها من الوجود بين نار من السماء وغبار من العجاج . وخرج الخياط يمسح فوق وجهه مستترا كان التراب سد منخريه ونفذ الى حلقه .

26

اكتسح العجاج الاحمر في ساعة كل رزق ومتاع ساقته السنون من باب او من اخر ، لا يسلم زرع او نبات ، ولا تنجو دابة او ماشية ، ولا يصمد شجر ثـابت في الارض او تمتنـع حيطان حصينة كان قوة السماء شبت في الارض ساعة تعيد الا من وتبعث السكينة .

وعجت مجالس الحوانيت وحلقات الحديث بما اصاب الناس من خسائر وما اكتسحت الريح العجاج مـن اغنـام ورعاة وما اقتلعت من الاشجار والطوابي وما خـربت مـن الدور والحيطان ، وفاضت التعاليق من الخسوف والكسوف ومشيئة الواحد القهار في كونه ومخلوقاته . وسرحت الخواطر وراء الصاعقات الماحقات وما ادركت به اقوام عـاثوا فـي الارض مفسدين .

وانشرحت السوق امنة . وتعافى ـ الحشائشي ـ يدب في طريقها منهوكا متوكئا ، يواسيه اهلها ويخففون عنه مـا حاق به الرفش راسه ، وما اكتسح العجاج الاحمر من رزقه ، لا يذر له نعجة او ماشية ، كان الايام الشاحت عنـه . ولازم ـ اسحاق ـ صاحبه في غدوه ورواحه يحفزه الى قسمته من من المقهى المغلق ، وتناسي صفحة الايام المسودة منها والمبيضة

كانها السماء القاتمة بين احمرار واصفرار في يوم العجاج .

وضاقت حال ـ الحشائشي ـ ووقفت يده وساءت علاقته بالزوجة الغضة الناعمة ، لا تطيق ضنك العيش وشطف الحياة في قبضة زوج منهد متداع كانها ابنته . وادبرت الدنيا في ايام قصيرة ، لا اثر لجبة فاخرة او قفة مشحونة من كل شهوة طيبة .

واقبل ـ الحشائشي ـ على صاحبه ـ لامين ـ كان نكبته المرة لا ينقذها غير من صفت معاشرته وخالط بينهما الحلال والحرام وابتلع مخزن الشارع سرهما الغارق مع ـ نمرود ـ و ـ الابرش ـ يتقاضيان حقائب الذهب والنقود في يد امينة ويقبضان البشارة عن الدواب والمواشي المسروقة .

وراوغ ـ لامين ـ متفصيا من كل ما حاول الحشائشي بتة في مخزن الشارع ازاء باب الدار لا من يرى ولا من يسمع ، بعد نكبة مريرة في جميع ما ينبض بالقلب ويتحرك بالحياة .

ومكث ـ الحشائشي ـ معذبا يسوف بين مجالس السوق في النهار منهوكا متواكئا ، لا يواسيه غير ـ أسحاق ـ الذي لا ينقطع يدفعه ، كل يوم ، الى باب المقهى المغلق قبل ان تضيع فرصته . ويعود به الليل الى مخزن صاحبه ـ لامين ـ الذي لا تخلو ساحته ، كل ليلة من الواقفين والواقفات للمشورة الثابتة والراي الصواب او للمعاملة الحسنة والوساطة المفلحة ويقبل الفتية والغلمان كانهم مصابيح الدجى كلما اغرق الليل سياته وانقطعت الخطوة في الشارع ليقوم ـ الحشائشي ـ متثاءبا متثاقلا يندفع في طريق داره موغر الصدر ، مكبل

الخواطر ويندس في فراشه مارقا لا تهدهده عروسة غضة ناعمة كانها طارت بها الريح العجاج .

ومكث ـ لامين ـ بريئا من كل ذنب ، متفصيا من كل حديث ، لا يعطي اذنه الى كلمة من كلام صاحبه المتذمر ولا يفتح عينه ازاء ما يتراءى له من حظه وعذابه ، كانه لا يسمعه ولا يراه ، منصرفا بالمصالحة والوساطة الى شؤون الناس عند الكاهية كل صباح ، راجعا كل مساء ، الى شؤون كثيرة في ـ سوسة ـ جاءه ربها ينتظر فراغه انا طويلا لياخذه معه ويبت له فيها عارفا مفلحا .

راحت الايام وغدت الليالي لا يجني منها ـ الحشائشي ـ وراء ـ لامين ـ غير الحسرة والاحتقار ، واشتدت النقمة تبرح به وتصاعد اضماره ، لا سبيل ان يظفر به ساعة او يزيح عن بصره غشاوة النكران والغدر .

وامتنع ـ لامين ـ كان حسابا راكدا بينه وبين صاحبه اكتسحت اثاره ريح العجاج الاحمر لا يعلم سره احد ولا يدرك مداه غير من اوقع ـ نمرود ـ مع ـ الابرش ـ في ساعة واحدة .

وتسلح ـ الحشائشي ـ ليلة وملا مقعده في مخزن الشارع ينتظر فراغ صاحبه من همس وتربيت وامر ونهي ورعود ومواعين ، كانه رب الدنيا في هذا البلد . وتفضت الساعات لا يفرغ فيها ـ لامين ـ من وقوفه ازاء باب او جلوسه اراء جدار ، كان دور الناس كلها ملكا واقبل الفتية والغلمان كانهم مصابيح الدجى لدورهم في المخزن بعد ما اغرق الليل

سباته وانقطعت الخطى في الشارع . وامتقع ـ الحشائشي ـ متضايقا من هذه الوجوه المتخنثة ووقف مرتبكا مذبذبا ينتظر صاحبه القابع في الظلام ، كانه يترقب غروبه .

وتردد ـ الحشائشي ـ انا لا يهتدي . وقبض خنجره وهجم يملا طريق صاحبه مستبيحا ان يقتله او يموت بين يديه . ووقف ـ لامين ـ محترزا ليدخل من باب الدار وينفذ الى مخزنه من السقيفة وجذب ـ الحشائشي ـ كتفه مرتعشا :

... عندي معك حديث ... كانك لا تعرفني ...

وارخى ـ لامين ـ كتفه مجيبا :

... يكفي انك تعرفني ... لك حاجة ... اقضيها لك ...

وتحامل ـ الحشائشي ـ

... عندي معك حساب ... اعطني متاعي بالحسنى ...

وتضاحك ـ لامين ـ مستخفا :

... واي تركة تعني ...

واجاب ـ الحشائشي ـ طامعا :

... انت تعرف ...

واجاب ـ لامين ـ مزدريا :

... ومن اين لي ان اعرف ... انت صاحب الحق ... انت اليتيم وانا الوصي ...

وارتعش صوت ـ الحشائشي ـ

... انا جئتك منذرا ... ومن انذر فقد اعذر ...

وتضاحك ـ لامين ـ محتقرا :

... مسكين انت ... مسكين من مساكين المسلمين ... تطلب متاعا كانك حقا صاحب متاع والله انت غبي ... امنت عندي مالا ... اودعتني متاعا ... اقرضتني دينا ... قل لي عن متاع تطلبه مني ...

وتدافع ـ الحشائشي ـ مرتبكا :

... انكـرت ... كانك لا تذكـر ... نسيـت ... شؤونـك كثيرة ... وشانك عال ... انا وراءك يامارق ...

واستصغر لامين كلام صاحبه :

... نسيت ... اولا اذكر ... او انكـرت ... بـاب دارك تعرفه ... او اذا شئت ابعث معك من يدلك عليه ...

وارتعشت يد ـ الحشائشي ـ كانه يهم ان يطعنه :

... ادس سرك الى الشرطة ... انا وحدي اعرف سرك ... حقيبة الذهب في دارك ... وحقيبة النقود ... اكشف سرك مع ـ نمرود ـ و ـ الابرش ـ افضح ادوارك مع ـ عبد الغفار ـ و ـ العبد الجبار ـ

وقاطع ـ لامين ـ مستخفا :

... كانك صبي ... او معتوه يهذي ... رح لفراشك وخل عنك الخرافات ... لو شئت انا ادكك في الحبس الليلة ...

واجهش ـ الحشائشي ـ مختنقا :

... انا وراءك ... ترى الخنجر ... اغمده في صدرك لو تبقى في عمري يوم ...

ودوح ـ لامين ـ كانه يعرف يد صاحبه :

... عد الى المقهى ... باب رزقك ... عد ... بع القهوة بع القهوة واقطع الاشواط بالطبق ...

وتضعضع ـ الحشائشي ـ يائسا من نفسه ومن صاحبه ودفع ـ لامين ـ باب داره لا يلتفت الى شبح من الماضي جاء يناوره بالخنجر وراء قسمة واهية .



27

جاء النهار وتذبذبت اصوات الفوالين والباعة المتجولين تطير بها الرياح مغموطة بين الازقة والشوارع البعيدة وضاعت اصوات الصبية في كتاب الشيخ ـ راجح ـ متهافتة كانه تخلى عن عصاه القاسية مستغفرا ربه من سماء مكفهرة . واستفتح العدول نهارهم بالقيل والقال حتى يبعث اللله قسمة .

واحتضن ـ اسحاق ـ ركبته فوق عتبة يواجه بـاب المقهى المغلق كانه يبكي من ذكرى ايامه ومنزل حبائبه . وجاء ـ الحاجة ـ يواجه فوق عتبة متثائبا مشتتا لا قبلة له في دنيا هذه السوق ودين اهلها . وجلس ـ الحشائشي ـ باسطا يديه لا ينش فوق صدره يائسا من نفسه ومن صاحبه .

ووقفت ـ المدامة ـ وسط كلابها وقططها حزينة ترعى في جوانبها يائسة معذبة كانها شبح مضمحل وجلس المعلم ـ دبة ـ كابيا كان انقطاع صوته اقفر السوق من اهلها . وملا ـ بابا الاخضر ـ فم الدريبة يغمظ كل صوت وينادي بين حين وحين كانه يهذي وتبختر وكيل الاحباس في طريق مكتبه كان موسم انكراء والصفقات ، دق الابواب .

وتحركت الحوانيت باهلها تغمر فضاء السوق بالنشاط والتئمت حلقة الخياط في حانوته مع جلساءه يبعثرون الكلام

ويبعثون الضحك . ووقف الحلاق يموج بين عتبة دكانه وكرسي الخشب الطويل اناقبل ان يعوج علىاصحابه وحرفاءه بالحديث الذي لا تنتهي اسبابه طول النهار .

وقاطع بوق الدريبة ينفخ فيه المعلم ـ دبـة ـ صارخـا مولولا :
... ياموالي البلد ... ياعرب ... يامسلمين ... القرعـة نهار الاثنين ... بني ربيع وبني كلثوم والبرجين ... الكنائس وسيدي الهاني وكروسيـة ... والمرديـن والمسعديـن ... المشيخات الكل يكونوا حاضرين ... يا موالي البلد ... ياعرب ويامسلمين ... القرعة نهار الاثنين ... المناعمة والنجاجرة والجديد بين والقبليين والجبليين ... القرعة نهار الاثنين ... ياموالي البلد ياعرب ويامسلمين ... الكل تكونوا حاضرين قدام الدريبة ... نهار الاثنين ... من تخلف منكم لا يلـوم الا نفسه ... ومن انذر فقد اعذر ...

وترقرقت النفوس ازاء موعد هذا الموسم كما تترقرق في في كل سنة . وفاضت الخواطر كما تفيض ازاء كل النداءات والاوامر . وامتلات الصدور كما تمتليء ازاء كل حكم قاهر لا جدال فيه ... وتاهت الخطط وراء الوسائط ودفع ـ العوض ـ اذا صادفت خدمة العسكر من لا يرغب فيها قبل ان تضج الدور بالصياح والعويل .

وتمطى النهار بين ساعاته ثقيلا يغرد فيه بوق الدريبة صاخبا متنحنحا . وتذبذت الحركة بين النفقة واطرافـا مـن الحديث الحائر . وهامت الخطى بين الحوانيت الراكدة وفضاء الشـارع القفـر . وتمشـي ـ اسحـاق ـ يائسـا ان يلـج

ـ الحشائشي ـ بـاب المقهى قبـل ان تفوتـه الفرصـة ولاذ ـ الحاجة ـ فوق السطح ضائعا مذبذبا ، لا وجهة امامه فـي دين سوق لا دنيا لها .

ومزقت عربة الشطة ، كان جريمة فظيعة جـاءت بهـا تطير من سوسة ـ وارتبك الواقفون ، لا تنفذ بهم التكهنات الى سبب من الاسباب . واوجس الجالسون تساورهم الشكـوك وتتقاذفهم الظنون . وتمشت ـ المدامة ـ وسـط حاشيتهـا ، كانها تساءل الواقفين والجالسين عن سر يومهم الغـارق .

وهمس ـ بابا الاخضر ـ في اذن المعلم ـ دبة ـ يريح وسوسته ، مشيرا الى جثة في بئر الجامع . وانتفض بـوق ـ الدريبة ـ مولولا ، يكاد ان يضع كفيه فوق اذنيه وينادي مبرحا عن جثة في بئر الجامع .

واشتد الهمس حينا تتقاذفه المسامع مفزوعة قانطـة . وطار الخبر وازورت الوجوه وترقرقت النفوس واغرورقـت العيون . ومزقت عربة الشرطة في طريق المسجد . وتحلـق الناس صامتين جامدين ووقف الكاهية عابسا مقطبـا وسـط حاشيته . وخيم الصمت انا ثقيلا . وانتشل الغائصون الجثة هامدة من قعر البئر .

ومزق الصراخ حرا ، يخاله ـ الحاجة ـ المنقطع فـوق السطح اذانا عن موت غني من اغنياء البلد . وحمى الصراخ بالعويل والنحيب تتقبض ازاءه النفوس وتختنق الاصوات . ووقف اصحاب الحوانيت ورواد الحلقات يقيسـون الكارثة ويراوحون اسبابها مستغفرين مسبحين باسم المانع الستـار

والحي القيوم .

واشتد البحث والتحقيق وراء موت شاب وسيم لا يسهر ولا يشرب ولا يخالط . وساقت ـ الدريبة ـ اصحاب الشبهات الى دار الشرطة في ـ سوسة ـ يستنطقهم السياط والوعيد وحامت الشكوك حول انداده ومعارفه ، لا يسلم قريب او بعيد وتسربت التهمة الى مخزن ـ لامين ـ الذي انكر كل صلة او معاملة .

وجد البحث بالسياط . وافلح التحقيق بالكهرباء . وتواترت الشهادة بالحق واصابت المكافحات المريرة وجهالوجه وتداعى ـ لامين ـ مشفقا ، لا ينقذ انكاره ـ جلاـردي ـ او ـ كاهية ـ ولا يغني عنه ماله وما كسب ، ولا تشفع له ادواره واحابيله بعدما خضه التيار ورجه العسف وادماه السياط .

وارتجت السوق كان الريح العجاج تكتسحها في يوم صحو لا احمرار ولا اصفرار . وارتدت الحلقات على اعقابها ، لا من يخال الشهوة الحرفاء تدفع ـ لامينا ـ الى زهق الروح التي حرم الله ، ودفنها في بئر الجامع ، كانه اختار لها امن قبر واقربها في ساعة غامضة ، حيث لا تراها غين ولا تدركها يد ولا تتبادر الى ذهن ، او هو اثر ان يدك المصلين والساهين في الحبس اذا لم يستنتج البحث والتحقيق سقوط الشاب لا من مسه ولا من اذاه .

وتدافعت الايام في طريق السوق بائسة مذبذبة ، لا تنقطع اصوات القوالين والباعة المتجولين تبدا نهارها بين الشوارع والازقة واصوات الصبية تطير من كتاب الشيخ راجح

متهافتة . ويستفتح العدول نهارهم بالقيل والقال حتى يبعث الله قسمة ويواجه ـ اسحاق ـ فوق عتبة ويلوذ ـ الحاجة فوق السطح، لا قبلة له في دينسوق لا دنيا لها. ويجلس الحشائشي باسطا يديه ، يائسا من صاحبه ومن نفسه وتقف ـ المدامة ـ وسط كلابها وقططها ترعى في جوانبها حزينة . ويملا ـ بابا الاخضر ـ فم ـ الدريبة ـ يغمط كل صوت ويهذي بين حين واخر كأنه يحلم . ويتبختر وكيل الاحباس في طريق مكتبه ، كان مسوم الكراءات والصفقات دق الابواب . وتتحرك الحوانيت باهلها تغمر فضاء السوق بالنشاط وتلتئم حلقات الحديث بالاخبار البعيدة والقريبة ويقاطع بوق ـ الدريبة ـ ينفخ فيه المعلم ـ دبة ـ مرة :

... ياموالي البلد ... ياعرب ويامسلمين ... القرعة نهار الاثنين ... من تخلف لا يلوم الا نفسه ... ومن انذر فقد اعذر ... ياموالي البلد وياعرب يامسلمين ...

ومـــرة :

... ياموالي البلد ... ياعرب ويامسلمين ... نعمة البليك نهار الاثنين ... قنطار قمح معه اثنان شعير ... الترسيم عند ـ المشائخ ـ والتوزيع في مخازن ـ السلون ياموالي البلد ... ياعرب ... من تخلف لا كمية له ...

الكتاب العربي

❁ سلسلة كتب للثقافة الادبية

❁ مؤسسها : حسن احمد جغام

الكتاب العربي

❁ يتعهد بأن يقدم لك ادبا رفيعا في مادته لائقا في عرضه يلائم ذوقك . وبه تكتمل كل مظاهر التجديد .

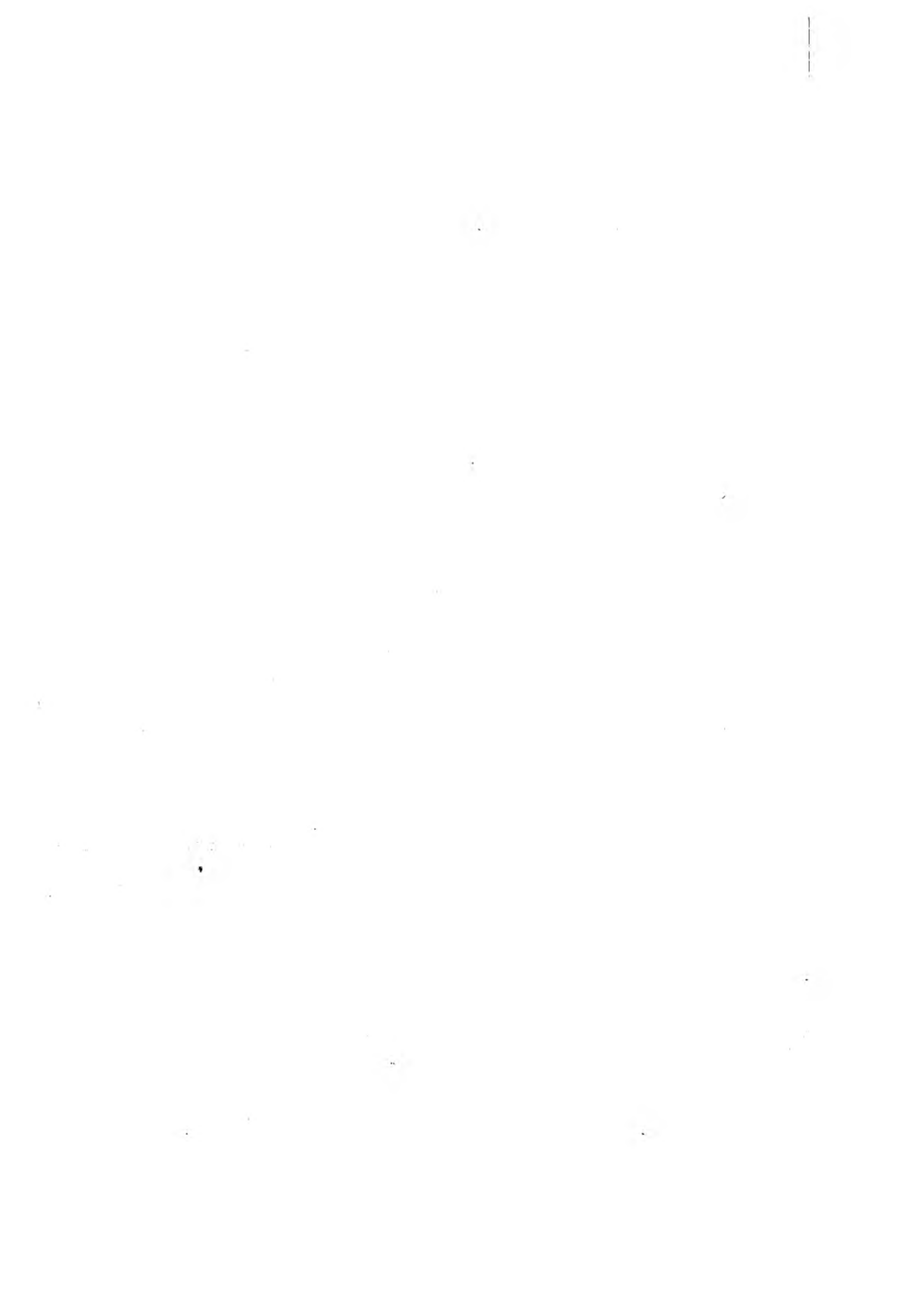
الكتاب العربي

صدر منه :

1) «دراسات في الادب العربي الحديث» للدكتور عطية عامر
2) «قصة حي بن يقظان» تأليف الفيلسوف «ابن طفيل»
3) «سوق الكلاب» رواية اجتماعية - لمحيي الدين بن خليفة

الكتاب العربي

❁ يقدم لك في عدده القادم : القصة الشعبية الخالدة «المختارة من الف ليلة و ليلة»





* محي الدين بن خليفة ([illegible]) سنة من مواليد عماكر [illegible] دراسته بالصادقية يعمل الآن موظف بوزارة الثقافة.

مؤلف قصصي من أنشط الكتاب التونسيين

صدر له حتى الآن المؤلفات التالية:

1- الشجرة سنة 1972 المطبعة العصرية

2- الرماد سنة 1975 المطبعة العصرية

3- سوق الكلاب سنة 1976 مطبعة المعارف

مؤلفات تحت الطبع:

4- اشباح السوق 5- المرمرية 6- الكنز المسحور

الثمن 850 م

مطبعة المعارف سوسة

رقم الإيداع 1444